الإستشراق الفرنسي
والسيرة النبوية

الإستشراق الفرنسي والسيرة النبوية

أميرة قاسم أبوهاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة محمد: آية ٢٩-٣٠

إهداء

إلى أرواح شهداء الحق

إلى روح والدي الطاهرة

و أمي الغالية

إخوتي وأخواتي

زوجي العزيز وولدي الغالي وليد

لكم جميعاً يا من غمرتموني بالحب والتقدير

أهدي جهدي المتواضع

الكاتبة/أميرة قاسم ابو هاشم

الفهرس

المقدمة.....

الفصل الأول

الإستشراق، المفهوم والنشأة

المبحث الأول: التجذير المفاهيمي للإستشراق .....
الإستشراق لغة واصطلاحاً.....
الإستعراب مقابل الإستشراق.....
التحديد الجغرافي للشرق .....
المبحث الثاني: النشأة والدوافع.....
نشأة الإستشراق الأوروبي وتطوره.....
دوافع الإستشراق وأهدافه .....
الدافع العلمي .....
الدافع الديني.....
الدافع الإستعماري .....

الفصل الثاني

الإستشراق الفرنسي: الأصول التاريخية والدوافع

المبحث الأول: أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية.....
المبحث الثاني: دوافع الإستشراق الفرنسي.....
الدافع العلمي .....
الدافع الديني.....
الدافع الإقتصادي.....
الدافع السياسي .....
نماذج من المستشرقين الفرنسيين .....
المؤسسات الإستشراقية الفرنسية.....

الفصل الثالث

السيرة النبوية في كتابات المستشرقين الفرنسيين

المبحث الأول: كتابات المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بشأن السيرة النبوية
المبحث الثاني: المستشرق الفرنسي إميل درمنغم وكتابه "حياة محمد" نموذجاً للإستشراق الفرنسي

الفصل الرابع

الموقف من كتابات المستشرقين الفرنسيين

وتفسيراتهم اعتماداً على مؤلفات السيرة النبوية الشريفة

المبحث الأول: الوحي .....
المبحث الثاني: ادعاء الأثر النصراني في النبي (ﷺ).....
المبحث الثالث: علاقة النبي (ﷺ) باليهود.....
المبحث الرابع: النبي (ﷺ) وتعدد الزوجات .....
المصادر.....

المقدمــة

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [1] صدق الله العظيم

أنه لمن المؤسف حقاً أن يحقق الغربيون سبقاً في الكتابة عن الذبي العربي محمد (ﷺ) في العصر الحديث.

وهناك مفارقة أخرى لا تقل أهمية عن السابقة، إذ دأب المستشرقون في كتاباتهم على عرض دعوة العلماء والباحثين العرب والمسلمين، والكتابة في السيرة النبوية الشريفة. ليس هذا فقط، بل يضعون شروطاً يعتبرون أن لا بد من توافرها لتوضيح السيرة النبوية للعالم علمياً[2].

وفي الوقت الذي نجح فيه عدد من المستشرقين في تشييد صرح تفسيراتهم وآرائهم عن سيرة الرسول (ﷺ)، وهو أمر يستحق منا الوقوف أمامه بمسؤولية، والتأمل فيه بروية وتعقل، لم يعد هؤلاء البناؤون يرتدون زي الكنيسة بل أصبحوا اليوم أساتذة جامعات ومثقفين يحاججون بآيات من كتاب الله العزيز، ويستندون إلى كتب السيرة النبوية، في حين اتخذت الكتابات العربية والإسلامية في موضوع السيرة النبوية الشريفة موقفاً دفاعياً في أغلب الأحيان.

وعلى هذا الأساس، وقع اختياري على موضوع "الإستشراق الفرنسي والسيرة النبوية" مدفوعاً بتحقيق جملة أهداف من بينها:

- رسم ملامح موثقة لشخصية الرسول (ﷺ) وخلفيته التاريخية والظروف التي عاشها.

الجدير ذكره أن سيرة الرسول (ﷺ) تعد أكثر السير وضوحاً بين الأنبياء والرسل كافة، الأمر الذي يؤكد أن محمداً (ﷺ) وبوحيٍ من الله تعالى، جهد في جعل عبارة "لا إله إلا الله" مدوية في أنحاء العالم كافة.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٢٠.

(٢) ناجي، عبدالجبار، (الإستشراق والسيرة النبوية) المنشور في مجلة دراسات إسلامية، بغداد، العدد١، سنة ٢٠٠٠، ص١٢.

لقد اختارته العناية الإلهية بالنظر إلى ما يتمتع به من صفات التوحيد والإيمان، نبياً مرسلاً إلى أهله وعشيرته وقومه ثم إلى الناس أجمعين، فضلاً عما كان (ﷺ) يتمتع به من مزايا العبقرية ونفاذ الرأي وحدّة الذكاء، مع العلم أنه قبل كل شيء رسول من الله الذي أيده بوحي من عنده.

ويجد الإنسان في الرسول (ﷺ) صورة للمثل الأعلى في شؤون الحياة جميعاً فكان (ﷺ) كما وصفه الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ووصفه أيضاً ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [2].

وتشتمل مؤلفات السيرة النبوية الشريفة على معلومات قيّمة تعين المرء وتتطرق إلى الأحداث التي مرت بالنبي (ﷺ) وكان فيها القائد والمعلم والمربي والزوج الحنون والأب العطوف والنموذج الحي[3]، و هذا بلا شك مصدر أساسي لدراسة وفهم السيرة النبوية الشريفة بمفهومها الصحيح والتي باتت مدماكاً لنهوض الدولة العربية الإسلامية ولانتشار الإسلام شرقاً وغرباً.

- محاورة آراء المستشرقين، الفرنسيين منهم بشكل خاص، في ما كتبوه في موضوع السيرة النبوية الشريفة.
- دراسة أعمال المستشرقين وتتبعها بلغاتهم أو المترجمة منها، الأمر الذي يسهم في فهم العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب.
- معرفة أسس المواجهة الحضارية مع الغرب، دفاعاً عن الكيان والهوية، تستلزم بحثاً عميقاً في الجذور التي لا تزال تذبت شوكاً في جذبات تلك العلاقة.
- تقدير بحوث المستشرقين التي شملت مساحة فكرية واسعة في مختلف مجالات التراث العربي الإسلامي، وقدمت خدمة لا ينبغي أن نحجبها بالنظر إلى أثرها الواضح في المؤسسات الأكاديمية والتخصصية.
- تبيان دور فرنسا تاريخياً والذي تميز بأهمية خاصة بحكم علاقتها مع الشرق. كما تميز الإستشراق الفرنسي بتأثيره الفكري والثقافي المستمر، مع بقاء العديد من المؤسسات التبشيرية الإستعمارية في الشرق، حيث يلعب المستشرقون دوراً بارزاً ونشطاً. وبناءً عليه تصبح دراسة هذا الدور مسألة على قدر كبير من الأهمية.

---

(١) سورة القلم، آية ٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٢١.

(٣) البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة [ط٧، مكتبة الدعوة الإسلامية - شباب الأزهر، دمشق، ١٩٧٨] ص١٧.

لقد دفعتني هذه الأهداف مجتمعة إلى الكتابة في موضوع الإستشراق الفرنسي والسيرة النبوية الشريفة مع ما يكتنف هذه المهمة من مصاعب وإشكالات، لاسيما تلك المتعلقة باللغة وندرة المؤلفات الفرنسية.

إخترت كتاب بولنفييه "حياة محمد" (La Vie de Mahomet) ليكون محوراً لدراستي، لأنه يمثل أول نتاج إستشراقي فرنسي عن السيرة النبوية الطاهرة. لكن ليس كل ما يشتهي المرء يدركه، إذ حالت صعوبات فنية بتصويره وترجمته دون ذلك، وهو ما اضطرني إلى توسيع مساحة الموضوع زمنياً وعلمياً، فأخضعت للدراسة عدداً من المستشرقين الفرنسيين، واعتمدت كتاب إميل درمنغم (حياة محمد) نموذجاً من بين نتاج هؤلاء المستشرقين.

قسمت الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول الإستشارق، المفهوم والنشأة.

تناولت مفهوم الإستشراق لغةً ومصطلحاً، والتحديد الجغرافي للشرق، وكذلك نشأة الإستشراق الأوروبي، تطوره ودوافعه.

وبحثت في الفصل الثاني الإستشراق الفرنسي، الأصول التاريخية والدافع.

تناولت أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية، ودوافعه مقارنة بدوافع الإستشراق عامة، ونماذج من المستشرقين الفرنسيين.

وكرست الفصل الثالث لدراسة الإستشراق الفرنسي والسيرة النبوية.

لذا تناولت كتابات المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بشأن السيرة النبوية، بالإعتماد على مؤلفاتهم في أغلب الأحيان، واستعراض كتاب المستشرق الفرنسي إميل درمنغم (حياة محمد) نموذجاً للمستشرقين الفرنسيين الذين كتبوا في السيرة النبوية العطرة.

أما الفصل الرابع فقد كرس لدراسة الموقف من كتابات المستشرقين الفرنسيين، بالإعتماد على مؤلفات السيرة النبوية الشريفة. وتضمن الموقف من طروحات عدة كالوحي، أثر النصارى في الرسول (ﷺ)، علاقة النبي (ﷺ) باليهود وزيجات النبي (ﷺ).

اعتمدت الرسالة في مناقشة آراء المستشرقين الفرنسيين في موضوع سيرة المصطفى (ﷺ)، على القرآن والحديث الشريف.

فالآيات الكريمة التي نزلت في الرسول (ﷺ) كانت المصدر الأساسي للرد على سوء الفهم والتفسير المتعمد الخاطئ والحاقد لعدد من المستشرقين، وقد اعتمدت في الرد على تفسيرات المستشرقين ومزاعمهم على مؤلفات السيرة والمؤلفات التاريخية والتراجم المعروفة للصحابة رضي الله عنهم جميعاً أمثال سيرة ابن اسحاق (ت١٥١هـ/٧٦٨م) التي هذّبها ابن هشام (ت٢١٨هـ/٨٣٣م) وطبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) وسيرة الرسول لإبن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

وفضلاً عن ذلك، إعتمدت الرسالة على المؤلفات التاريخية الأساسية كتاريخ الأمم والملوك للطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م).

هذا ما يشتمل عليه الفصل الخاص بالرد على آراء المستشرقين في موضوع السيرة.

أما الفصول الأخرى في الإستشراق الفرنسي، فقد اعتمدت الكثير من البحوث والمؤلفات الإستشراقية المترجمة إلى اللغة العربية أو اللغات الأجنبية والدراسات العربية عن الإستشراق.

إن ما قمت به ليس إلا عملاً متواضعاً حاولت فيه التحري والبحث وصولاً إلى الحقيقة، بغية الذود عن الإسلام عقيدةً ومثلاً وقيماً وعن العروبة التي ارتبطت بالإسلام ارتباط الروح بالجسد، فإن أصبت في عملي فسيكون لي أجران، وإن أخطأت فأستغفر الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٦.

الفصل الأول

الإستشراق – المفهوم والنشأة

المبحث الأول: {التجذير المفاهيمي للإستشراق}

المبحث الثاني: {النشأة والدوافع}

المبحث الأول

التجذير المفاهيمي للإستشراق

الإستشراق لغة واصطلاحاً

ظهر مصطلح "الإستشراق" في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، و هو حديث الإستعمال يتصل أصله بـ "الشرق"(١)، ويعني لغةً "طلوع الشمس من الشرق"(٢)، ومنها الفعل "شرّق" أي اتجه نحو الشرق(٣).

والجدير ذكره في هذا التجذير اللغوي أن المصدر إستشراقاً "يعني طلب علوم أهل الشرق"، وهي إشارة صريحة إلى من كان يبغي حضارة الشرق، "وتقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة"(٤).

وفي اللغة الإنكليزية، إستشراق Orientalism مشتقة من كلمة Orient إلى الشرق، "وتعني دراسة ثقافة الشرق".

وفي قاموس وبستر Webester's، اسم الفاعل Orientalist أي مستشرق(٥) هو "المعنى بمعرفة اللغات الشرقية"(٦).

وللشرق معانٍ وتحديدات جغرافية متعددة، فالبريطانيون بالأخص يعنون بالشرق تخصيصاً الشرق الأوسط Middle East.

وجاء في دائرة المعارف الشعبية الأميركية The American People's Encyclopedia أن كلمة "Orient" هي المنطقة التي تتضمن بلدان آسيا حصراً و هي مشتقة من كلمة "Oriens" اللاتينية التي تعني Sun rising أي طلوع الشمس.

وشاعت الكلمة خلال عهد الإمبراطورية الرومانية، فكانت تعني مناطق شرق وجنوب شرق البحر المتوسط كافة، أي المنطقة التي تشرق عندها الشمس(٧)، و هو

---

(١) البستاني، فؤاد أفرام، دائرة المعارف [بيروت، ١٩٧٧] مجلد ١٢، ص١١.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، (ت٧١١هـ، ١٣١١م)، لسان العرب [طبعة مصورة عن طبعة يولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة] جـ١٢، ص٣٩.

(٣) وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين [ط٣، مطبعة دائرة المعارف، بيروت، ١٩٧١] مجلد ٥، ص٣٧٩.

(٤) رضا الشيخ أحمد، معجم متن اللغة [دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩] مجلد ٣، ص٣١٠.

(5)Webster's, New Twentieth Edition Century, dictionary p-1261.

(6)University press: The Compact Edition of The Oxford English Dictionary, (New York-1971); vol. – 1 ;p-2009.

(7) The American Peoples Encyclopedia: New-York; Vol.-19;P-903

مفهوم ظل شائعاً في التحديد الجغرافي الحالي الذي قصد بالشرق حوض البحر المتوسط.

والتعبير باللغة الفرنسية "Orientalisme" لا تختلف كثيراً عما ذُكر آنفا، فهو العلم المعني بأمور الشرق وتراثه، و"Orientalist" تعني مستشرق و"Oriental" تعني شرقي[١].

ظهر أول ذكر لمصطلح الإستشراق (Orientalisime) في قاموس أوكسفورد عام (١٧٧٩م)، بينما كان أول استعمال له في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام (١٨٣٩م). ويشير استعماله في الوقت الراهن إلى المفاهيم المتعلقة بدراسات الشرق من الناحية الدينية واللغوية والعلمية والأدبية والفنية[٢].

وقد تباينت الآراء حول مفهوم الإستشراق، ويرجع ذلك إلى اختلاف المنطلق والتوجه جغرافياً وسياسياً.

فمنهم من يرى في الإستشراق علماً يدّرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم وأديانهم في ماضيها وحاضرها[٣]، وهو رأي جامع وشامل.

ومنهم من قال بأن الإستشراق يعني الدراسة المتقصية والمتمعنة لمختلف الأغراض التي قام بها الغربيون، رغبة منهم في استيعاب الشرق منطقة وتاريخاً، وتفهمه والتعرف إلى كنوزه الحضارية وعاداته وتقاليده ودياناته وكل شيء عن حياته[٤]، وهذا التعريف كما هو واضح يفيد بأن الإستشراق مدفوع بهدف وفلسفة.

وفي تعريف آخر، يُفهم الإستشراق على أنه معرفة للشرق ترسخت وانتظمت في نسق له مقدمات ونتائج، ويعمل بتقنيات ومناهج خاصة[٥]، حيث يضيف لما سبقه التنظيم والتخطيط.

إن العوامل التي أدت إلى ظهور مصطلح الإستشراق أحاطته بالغموض والتعميم، لأن الشرق هو تحديد أطلقته أوروبا على كل الأراضي التي كانت تقع وراء حدودها شرقاً، وربما يصل هذا التحديد إلى اليابان، إلا أن هذا الفهم للشرق أخذ

---

(1) Le nouveau Petit Robert, Dictionnaire De La Langue Francaise. Nouvelle Edition. Remaniee Et Amplifiee Sous La Direction De Josette Rey-De Bove et Alain Rey, Paris, Deco Robert, 1993, P-1548.

(٢) الدسوقي، محمد، (خصائص المرحلة الثالثة للإستشراق)، المنشور في مجلة الدعوة الإسلامية، العدد ٧٢ سنة ٢٠٠٠ ص٣-٤.

(٣) الساموك، سعدون محمود والعاني، عبدالقهار وداود، مناهج المستشرقين، [التعليم العالي في الموصل، ١٩٨٩] ص١٧.

(٤) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية [ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١] ص١٧.

(٥) خميش، سالم، الإستشراق في أفق انسداده [ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩١] ص٧.

بالتبدل عبر القرون ليقتصر على الشرق الأوسط، بما يشمله من تاريخ وأديان وثقافات[١].

ومما تقدم نجد أن الإستشراق "دراسة عامة لأحوال الشرقيين شعباً والشرق منطقة من جهة لغاته القديمة ولهجاته الحديثة وتاريخه وأساطيره، طباعه وعاداته وتقاليده، أديانه ومعادنه وكل ما يتصل به من الناس والحيوان والذبات والمناخ والتربة ومكونات الشخصية وعوامل الفرقة"[٢].

تلتقي هذه الآراء والتعريفات للإستشراق رغم الفوارق الشكلية فيها من حيث المضمون المستند على التحديد الجغرافي للشرق الذي يختلف عن الغرب الأوروبي والأميركي.

من ناحية أخرى، وفي إطار تجاوز المفهوم الجغرافي للمصطلح، اختلط الإستشراق بشكل مرتبك أحياناً بمصطلح الإستعراب والمستعربين من غير المسلمين أو الذين لم يتكلموا اللغة العربية، وهؤلاء بحثوا في تراث الشرق لغة وأدباً وإن كانوا شرقيين "فشملهم هذا التعبير وغمرهم هذا المصطلح فصاروا مستشرقين"[٣]. وهذا يعني أن الإستشراق هو اشتغال كل من هو غير مسلم بعلوم المسلمين، بغض النظر عن جنسيته ووجهته الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية"[٤]. وعلى هذا الأساس، يعتبر الباحثون بتراث الإسلام من روسيا والصين واليابان مستشرقين بالرغم من كونهم من الشرق. كما يخرج من المصلطح الباحثون الغربيون (أوروبا وأميركا) الذين تخصصوا ودرسوا تراث روسيا واليابان والصين.

ومن الكتّاب والمهتمين بموضوع الإستشراق من عرّفه استناداً إلى اتجاهاته ونتائجه وتأثيراته على العرب والإسلام والشرق عموماً، حيث اعتبر إدوارد سعيد "الإستشراق صيغة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنيّة على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية ورأى في الإستشراق لفظاً أكاديمياً صرفاً"[٥].

---

(١) السامرائي، قاسم، الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية [ط١، الفرزدق، الرياض، ١٩٨٣] ص١٠٧-١٠٨.

(٢) جبري عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين. [ط١، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، ١٩٨٨] ص٩.

(٣) الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية [المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣] ص١٢.

(٤) النملة، علي بن إبراهيم الحمد، الإستشراق والدراسات الإسلامية، مصادر الإستشراق والمستشرقين ومصدريتهم [ط١، التوبة، الرياض، ١٩٩٨] ص١٢٤.

(٥) سعيد أدوارد، الإستشراق، المعرفة، السطلة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو أديب، [ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١] ص٣٨.

وبمعنى آخر إنه "معرفة متكونة عن هذا العالم (الشرق) منطلقة منه ومسقطة عليه من الخارج من التكوينات والتراكمات المعرفية الأساسية عنه، بل والضرورية أحياناً للتعرف والتعمق في مفهوم الهوية العربية الإسلامية، ومراحل نموها وتطورها وحجم تفكيرها ومناهج هذا التفكير"(١).

وبناء على ما تقدم، نجد أن "الإستشراق هو ذاك الاهتمام الواسع بالشرق بكل ما يحتويه، والذي بدأ بالعرب والإسلام، وامتد ليشمل الشرق بكامله. والفكرة الشائعة بين الكثيرين ان الإستشراق هو أن يقدم المستشرقون إنتاجهم الفكري لأبناء الشرق، لكن ذلك هو جانب واحد من الإستشراق، وإن إقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو إستشراق أيضاً"(٢). وفعلاً، ألم تكن الأدوار معكوسة، حيث كان الفكر الغربي هو الطالب، والفكر العربي خلاقاً، كان هو المعطاء(٣).

وينسحب الإختلاف في تحديد مفهوم الإستشراق على تحديد من هو المستشرق الذي يقوم بفعل الإستشراق.

هناك من يعتبر المستشرق من "جمع بين الإنقطاع في درس بعض أذحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية"(٤)، واعتقد أن هذا التعريف يضيق من المساحة التي ينضم إليها المستشرقون لأنه ينطوي على افتراض مواصفات في المستشرق قلما نجدها في من اطلعنا على كتاباتهم. وهذه المواصفات تستلزم منه أن يتصف بالعلمية والموضوعية والنزاهة والأمانة وغيرها، في حين يربط العديد من المهتمين موضوع الإستشراق بالاستعمار الحديث واعتبر كل مستشرق "عميلاً سرياً داخل الشرق في اختصاصه كتلميذ تُعده المؤسسة الإمبريالية بغية إحكام سيطرتها على الشرق من خلال دراسة موروثاته الثقافية"(٥). ومع ما لهذا التصور من أدلة في واقع الإستشراق الغربي، إلا أنه لا يمثل الحقيقة كاملة.

وعلى الرغم من أهمية النظر إلى النتائج في تحديد الموقف من المستشرق، إلا أنه ليس بالمقياس الحاسم لأن ثمة عوامل أخرى تؤثر إلى حد بعيد في ما يصل إليه

---

(١) ميكيل، أندريه (مات الإستشراق وحذار من الإستغراب) المنشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (٢٠، ٢١، ٢٢)، بيروت، ١٩٨٢، ص٧٩.

(٢) الخريطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي [ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٨] ص٢٧.

(٣) اركون، محمد (التأمل الإبستمولوجي غائب عند العرب] المنشور في مجلة الفكر العربي المعاصر العدد (٢٠، ٢١، ٢٢)، ١٩٨٢، ص٨٢.

(٤) حمدان نذير، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين [ط٢، دار المنار، حدة، ١٩٨٦] ص٣١.

(٥) سعيد، خير الله رشك (منهجية التعالي على تراث الشعوب) المنشور في مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، تموز، ١٩٩٠، العدد ٩، ص١٠٦.

المستشرق من نتائج، كمستوى التعمق في فهم اللغة، والعادات والتقاليد. ولذلك يكاد يتفق العديد من الكتاب والمفكرين على تصنيف المستشرقين وفق ثلاث فئات، أولها تلك التي تذهب إلى أولئك الذين لم يمتلكوا الثروة اللغوية فوقعوا في الخطأ، وثانيها أولئك الذين أثرت فيها مآرب السياسة والتعصب الديني فوجهوا الحقائق ونشروها بما يوافق أغراضهم، وثالثها على قلتها، أولئك الذين سعوا إلى البحث عن حضارة الشرق بدافع علمي وإخلاص للبحث والتحري والإنصاف[١].

الإستعراب مقابل الإستشراق

الإستعراب لغةً عباره مشتقة من استعرب أي "التحق بالعرب"[٢]، ويقال: "عرب الأعجمي إعراباً، وتَعرب تعريباً، واستعرب استعراباً وكل ذلك للاغتم دون الفصيح"[٣]. ومنها كلمة مستعربة أي "دخلاء ليسوا بخلص"[٤] أو "قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيأتهم، وليسوا بصرحاء فيهم"[٥].

وفي الفرنسية يقال Arabisation أي تعريب أو صيّره عربياً وArabisant وتعني المتخصص باللغة والحضارة العربية" [٦]. وأطلقت تسمية المستعربين "على المسيحيين في إسبانيا الذين عنوا بالبحث عن قضايا تفصيلية ودقيقة في معرفة أصل العرب"[٧]، حيث أصبحت هناك "كلمة عربية (المستعربة) تنطق باللاتينية (Mozarabe's – Musta'riba) تدل على سكان البلاد الذين بقوا على دين آبائهم تحت الحكم الإسلامي، لكنهم أصبحوا ناطقين بالعربية (Arabphone) أو يتكلمون اللغتين على الأقل"[٨].

---

(١) حمدان، نذير، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، ص٣٦-٣٧.

(٢) البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، مجلد ١٢، ص٦٩، أنظر كذلك: لويس معلوم، المنجد في اللغة، ط٥، ص٥١٦.

(٣) الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس [تحقيق عبدالكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٧] ج٣، ص٣٣٥.

(٤) رضا، الشيخ أحمد، معجم متن اللغة، مجلد ٣، ص٥٩، انظر كذلك: بطرس البستاني، محيط المحيط [مكتبة لبنان، بيروت] مجلد ٢، ص١٣١.

(٥) الزبيدي، الشيخ محمد مرتضى، تاج العروس، ج٣، ص٣٣٤.

(6) Format. Grand. Le Petit L'arousse, Paris, 1993, P-81.

(٧) رودنسون، مكسيم (الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام) المنشور في تراث الإسلام، تحقيق شاكر مصطفى سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨، العدد ٨ ص٢٩.

(٨) غابرييلي، فرانشيسكو (الإسلام في عالم البحر المتوسط) المنشور في تراث الإسلام، العدد ٨ ص١٣٤.

هذه الظاهرة تعود إلى "القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ناجمة عن إقبال الشباب الأسباني على دراسة اللغة العربية وآدابها باندفاع، ما أثار حفيظة الأب الإسباني "الفارو" القرطبي، فراح يطلق شكواه المرّة من أولئك الأسبان الذين انصرفوا عن اللاتينية، لغتهم ولغة دينهم ليقبلوا طواعية على لغة العرب وآدابها"[١]. وكان منهم من اندمج في حياة المسلمين وقلّدهم في مختلف نواحي حياتهم اليومية، حتى أنهم أدخلوا ألفاظاً عربية في طقوسهم الكنسية، بحيث تميزت عن أبناء ملّتهم، وسميت بالطقوس المستعربة[٢].

و في الو قت الحا ضر، يطلق الأميركيون والبريطانيون مصطلح الإستعراب على المتخصصين بدراسة شؤون العرب تحديداً في لغتهم وتاريخهم وحضارتهم وهو قسم من الإستشراق[٣]، "والمستعربين هم الأجانب الذين اختصوا بالدراسات العربية في العصر الحديث"[٤].

وفي تحديد آخر للمستعربين لا يختلف كثيراً عن الرؤية السابقة، يقصد به من يدرس شؤون العرب والإسلام الحضارية، لغة وآداباً وتراثاً[٥].

والجدير بالذكر أنه من غير الصحيح القول بأن كل مستشرق هو مستعرب بينما العكس هو أكثر صواباً حيث يعتبر كل مستعرب مستشرقاً، أي لا يصح استعمال كل منهما مكان الآخر، فبينهما عام وخاص[٦].

التحديد الجغرافي للشرق

الشرق ويعني الجهة التي تشرق منها الشمس، ونظراً إلى كروية الأرض، فإن كل بقعة عليها لها شرق في الوقت نفسه الذي تكون هي فيه شرق لبقعة أخرى.

---

(١) الأوسي، حكمت علي (من أعلام الإستشراق الأسباني) المنشور في مجلة الإستشراق، ١٩٨٩، العدد٣، ص١٢٠.

(٢) الشكعة، مصطفى، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، [ط٢، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٩٨٥] ص٣٢٢.

(٣) البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، مجلد ١٢ ص٦٩.

(٤) الأعسم، عبدالأمير، (الإستشراق من منظور عربي معاصر، المنشور في مجلة الإستشراق، العدد الأول، كانون ثاني، ١٩٨٧) ص٢٧.

(٥) ناجي، عبدالجبار، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي [دار الحرية، بغداد، ١٩٨١] ص٢٣. انظر كذلك: ميشال جحا، الدراسات العربية اللإسلامية في أوروبا، [ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢] ص١٣.

(٦) ناجي عبدالجبار، المصدر نفسه، ص٢٧.

وعليه فإن المدلول الجغرافي لكلمة "شرق" يتغير تبعاً لاختلاف المكان[١]، واختلاف الجهة المحدد منها.

في العصور القديمة، كان "الشرق" يعني المناطق التي تقع في شرق البحر المتوسط، حيث كان هذا البحر يتوسط العالم القديم، وكانت الجهات تحدد بالنسبة إليه[٢]. ومع اتساع العالم جغرافياً وتطور الحياة وانتقال ثقل الأحداث العالمية إلى الشمال والغرب، بقي مصطلح الشرق دالاً على المناطق شرق البحر المتوسط[٣].

وفي أعقاب حروب التحرير التي وصلت إلى المحيط الأطلسي غرباً، تعرضت لفظة "الشرق" إلى تطور المعنى والمدلول، حيث أصبح المغرب شرقاً أيضاً، ولم يعد المغاربة كما كانوا، حيث الحدود الغربية للعالم حينئذ أو حين تغرب الشمس كما كانوا يعتقدون[٤].

ويرى بعضهم أن كلمة "الشرق" تحمل مدلولاً حضارياً جغرافياً، إذ اتسم الشرق بحضارة متميزة تختلف كثيراً عن ألوان الحضارات الأخرى، وإن من يرتحل بين الدول العربية والإسلامية ودول الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا، يجد تقارباً أفقياً بين المجموعات البشرية الكثيرة التي تعيش في هذه المناطق[٥].

ونظراً إلى طبيعة الصراعات عبر التاريخ، أصبح لكلمة "شرق" مدلول سياسي ارتبط بهذه الصراعات التي تعاقبت خلال مراحل تاريخ البشرية، وكان فيها الشرق يمثل مركز إحدى القوى الرئيسية المتصارعة، في حين يمثل الغرب القوى الأخرى[٦]: (الفرس-الروم)، (المسلمون-الروم)، (المسلمون-الصليبيون)، (العثمانيون-الأوروبيون) والتي أفضت إلى هذه الصلات القائمة بين الشرق ممثلاً بآسيا وأفريقيا، وبين الغرب في أوروبا وأميركا.

حاولت فرنسا إيجاد روابط سياسية وحضارية تستند إلى روابط جغرافية، حيث زعمت أن أهالي الأقاليم المطلة على البحر المتوسط ذات حضارة وثقافة من لون خاص وطابع متميز، واستهدفت من ذلك إحكام قبضتها على سوريا ولبنان والمغرب العربي[٧].

---

(١) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٢، انظر كذلك: الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها [ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٨٣] ص٥٥.

(٢) جحا، ميشال، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص١٥-١٦.

(٣) الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص١١.

(٤) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧.

(٦) الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المتستشرقين منها، ص٥٨.

(٧) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٣.

وفي المصطلحات السياسية الحديثة، قُسم الشرق إلى ثلاثة أقسام جغرافية[١] هي:

- الشرق الأدنى Proche Orient; Near East ويطلق على المنطقة التي تشمل تركيا وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق ومصر وأصقاع جزيرة العرب الشمالية.
- الشرق الأقصى Extreme – Orient; Far – East، ويطلق على المنطقة التي تشمل كلاً من سيبيريا، الصين، اليابان، الهند الصينية، ملايو، وأندونيسيا.
- الشرق الأوسط Moyen – Orient; Middle – East ويطلق على العراق، أفغانستان، باكستان، الهند، وإيران.

وتخضع هذه المصطلحات لمتغيرات سياسية وجغرافية عدة، حاول الغرب تجذيرها كمفاهيم بديلة للقومية والدين من خلال العمل على ربط شعوب هذه المناطق تحت مسميات مختلفة لإبعادها عن الروابط الحقيقية التي تشكل أواصرها الوحدوية.

فقد ورد في دائرة معارف العالم، أن Orient هو تعبير يطلق على الأقطار والجزر الآسيوية، وفي بعض الأحيان يطلق هذا المصطلح على القسم الغربي من آسيا الذي يعرف بالشرق الأدنى[٢].

ومما تقدم، تتضح لنا صعوبة تحديد المدلول الجغرافي لكلمة "الشرق" المستخدمة في العملية الإستشراقية التي اتسعت بالتدريج وبخطى ثابتة، بحيث شمل اهتمام المستشرقين كل تلك المنطقة الجغرافية الواسعة التي تغطي نصف العالم، والتي حاولت أن تستوعب جميع أنواع المعارف والتخصصات ما دامت تعالج موضوعات ذات صلة بتلك المنطقة بصرف النظر عما يقوم بينها من اختلاف وتباين[٣].

---

(١) توتل، فرديناند، المنجد في العلوم [بيروت، ١٩٥٦] ص٢٨٨.

(2)The world book Encyclopedia; (U.S.A-1964); vol. – 14, p-647.

(٣) أبو زيد، أحمد، (الإستشراق والمستشرقون)، المنشور في مجلة عالم الفكر، تموز/ آب – ١٩٧٩، مجلد ١٠، العدد ٣، ص٢٦٣-٢٦٤.

المبحث الثاني

نشأة الإستشراق الأوروبي وتطوره

لعله من الصواب القول إن هناك اختلافاً بيّناً بين الذين كتبوا عن موضوع البداية الحقيقية للإستشراق. ويرجع الإختلاف من جهة إلى النظر للجهود والمساهمات الفردية الأولى التي تناولت النشاطات الثقافية والفكرية العربية والإسلامية، إذ منهم من اعتبرها البدايات الأولى للإستشراق، ومنهم من يعتبر بدء الدراسات المنظمة هو البداية الحقيقية.

ومن جهة أخرى، ينسحب الخلاف في الآراء حول مفهوم الإستشراق وتحديد هوية المستشرق، على تحديد تاريخ بدء الإستشراق.

لقد مر الإستشراق بمراحل تاريخية وخضع لتأثير عوامل دينية وسياسية وثقافية مختلفة، لذلك نجد صعوبة في محاولة إيجاد تاريخ محدد لبدء الإستشراق بما يقصد منه دراسة منظمة، وجهود مكثفة للدراسات الشرقية، لكن المتفق عليه عموماً هو أن الكتابة عن الشرق العربي - الإسلامي في أوروبا بدأت مع بداية تصادم العرب- المسلمين مع الفرنجة داخل الأراضي الأوروبية، عندما سارع رجال الدين المسيحيون في رد فعل إلى دراسة الإسلام لإبعاده عن شعوبهم[١].

ورغم ذلك لا مراء من التسليم بأن الجذور التاريخية للعلاقة بين الغرب والوطن العربي ترجع إلى قرون عديدة سابقة، منذ بدايات احتكاك اليونان بالفرس عبر الأراضي العربية، فتكشفت حينها ثروات الشرق.

المرحلة اللاحقة لهذا التلاقح والتصادم فرض نفسه عندما بدأت الدولة العربية - الإسلامية تحرر الأراضي العربية، حيث وقف المسلمون والنصارى موقف الخصومة السياسية التي تعزى أسبابها إلى جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبي[٢].

وهناك من يرجع بداية الإستشراق إلى القرن العاشر الميلادي، حيث ظهر الاهتمام بالعلوم العربية الإسلامية إذ قصد بعض الرهبان الأندلس إبان عظمتها ومجدها وتعلموا في مدارسها وترجموا بعض الكتب إلى لغاتهم وتتلمذوا على يد علماء مسلمين، اشتهر منهم الفرنسي جربرت دي أورلياك (Gerbert de Aurillac) الذي انتخب بابا لكنيسة روما (٩٩٩-١٠٠٣م) باسم سلفستر الثاني Silvester II الذي

---

(١) الجشعمي، عصمت جودي محمد، (دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي)، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٥٢، ١٩٧٥، ص٥٨.

(٢) هيكل، محمد حسين، حياة محمد [ط٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢] ص٩.

أنشأ مدرستين عربيتين الأولى في إيطاليا وهي مقره الديني والثانية في ريمس (Reims) في فرنسا[١]، في حين كان الشباب الأسباني ومنذ القرن التاسع الميلادي يقبل على دراسة اللغة العربية وثقافتها وآدابها.

وإلى جانب ذلك، كانت هناك محاولات أخرى أكثر تنظيماً باتجاه تلقي العلم من العرب في الأندلس، واتخذت شكل البعثات الرسمية التي وفدت إلى الأندلس للدراسة في معاهدها وتلقي العلم[٢] وكان أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا، والثانية إنكليزية وعلى رأسها الأميرة دوبان ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز، والثالثة في مقاطعات "سفوا" و"بافاريا" و"سكسونيا" والـ"راين" ووصل عدد الطلاب حوالي سبعمائة طالب وطالبة [٣] في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

ومنذ القرن الثاني عشر، بدأت تظهر عمليات الترجمة والنقل لمؤلفات يونانية قديمة ترجمها وفسرها علماء عرب، وبرز من هؤلاء الذين تعلموا العربية بشكل سمح لهم بفهم النصوص، المستعرب البريطاني أدلارد الباثي وميخائيل سكوت وبطرس الناسك وروبرت أوف جستر وهيرمان الدلماسي وجيرارد الكرموني[٤].

ولذلك اعتبر كل من رودي بارت[٥] وهو مستشرق ألماني ولويس ماسينيون وهو مستشرق فرنسي وغيرهم، أن القرن الثاني عشر هو بداية الإستشراق، حيث

---

(١) العقيقي، نجيب، المستشرقون [ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤] ج١، ص١٣٠.

(٢) فانتاجو، مالكس، المعجزة العربية، ترجمها إلى العربية رمضان لاوند، [ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤] ص٦٥.

(٣) الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة إنتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، ص٦٤.

(٤) ناجي، عبدالجبار، الإستشراق وسيلة لنقل وترجمات بيت الحكمة العباسي إلى الغرب، بحث منشور في الذكرى المئوية الثانية عشر لتأسيس بيت الحكمة، سنة ٢٠٠٠.

(٥) بارت، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر [دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧]، ص٩.

* ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن سنة (١١٤٣م) ونسبت إلى بطرس المبجل (Peter The Venerable) رئيس دير كلوني، الذي ولد سنة (١٠٩٢ أو ١٠٩٤م)، ومات سنة (١١٥٧م). وكانت رحلة أقلته إلى أسبانيا لزيارة الأديرة التابعة له سنة (١١٤١م) وكانت فرصة له أطلع من خلالها على الحوار الدائر بين المسيحية والإسلام والمعارك الدائرة بين المسلمين والأسبان فولدت على أثرها لديه قناعة بأنه لا سبيل للرد كما يدعي على (هرطقة محمد) إلا بقوة الكلمة. وعليه وضع خطة لترجمة القرآن إلى اللاتينية بالاستعانة مع مجموعة من الرهبان المترجمين (روبرتوس أو روبرت أوف كيتون الإنكليزي Rober of Ketton وهيرمان الدلماسي الألماني).
لمزيد من الإطلاع انظر: رودنسون، الصورة الغربية، والدراسات العربية الإسلامية، ص٣٧.

تمت فيه أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم*، كما ظهر فيه أول قاموس لاتيني عربي[١]. أما ترجمة القرآن فقد حفلت بأخطاء جسيمة في المعنى والمبنى. ولم يكن الراهب روبرتوس أميناً إذ أغفل العديد من المفردات، حيث كان المكلف بترجمة القرآن في حين قام الآخر (هيرمان) بترجمة النبذ المختصرة[٢].

ويرى بعض الباحثين أن تاريخ الإستشراق يرجع إلى الحروب الصليبية التي أنطلقت أولى حملاتها في أواخر صيف (١٠٩٦)[٣] حين بدأ الاحتكاك الديني والسياسي بين الإسلام والمسيحية في فلسطين وبلاد الشام، والهزيمة التي تلقتها أوروبا على يد العرب المسلمين، وما تركته من آثار عميقة في نفوسهم دفعتهم للتفكير في سر قوة وصلابة إيمان المسلمين، ما دفعهم للبحث والدراسة في سبيل الكشف عن وسيلة أخرى غير وسيلة الحروب والسلاح، للنيل من العرب والإسلام، فنشأ الاهتمام من قبل الغرب بالشرق والبحث في معظم أموره[٤].

وكان للتعبئة التي نهضت بها البابوية ورجال الدين النصارى، بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة، تأثير في تأجيج الحقد والكراهية في نفوس المسيحيين الغربيين ضد المسلمين، ما ولد شعوراً طاغياً بالبغض السياسي والديني نحو العرب والمسلمين، وتميز هذا الشعور بالتعصب الشديد[٥]، وبقي "موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام موقف الدفع والمشاحنة فحسب"[٦].

لذلك كان جل همهم أن يبحثوا في كيفية النيل من العرب والإسلام في دينهم، وحضارتهم، وتاريخهم، ولعل الأوسع شهرة في هذا المجال المبشر رايموندوس لولوس[٧] من القرن الثالث عشر والذي أراد "أن يقنع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي"، فبذل جهوداً كبيرة لتأسيس كراسي لتدريس اللغة العربية[٨]، بغرض تعليم الرهبان كيفية التبشير ضد الإسلام. هذه الجهود

---

(١) فوك، يوهان، تاريخ حركة الإستشراق تعريب عمر لطفي العالم [ط١، دار كتيبة، دمشق-بيروت، ١٩٩٦]، ص١٥. وقد ذكر فوك أيضاً أن المعجم العربي اللاتيني غير معروف صاحبه ولا مكان وتاريخ صدوره وإن كان فحواه يدل على أنه ألف في أسبانيا المسيحية، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧.

(٣) قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية [مطابع السياسة، الكويت، ١٩٩٠] ص١١٣.

(٤) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق [ط١، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٨٠] ص١٠.

(٥) الحميدة، سالم محمد، الحروب الصليبية [ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤] ج٤، ص٧.

(٦) بارت، رودي، الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ص٩.

(٧) فوك يوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص٢٦.

(٨) المصدر نفسه، ص٩.

أسهمت في صدور قرار مجمع فيينا الكنسي[١] عام ١٣١٢م القاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات العربية والعبرية والسريانية في كل من جامعات أوكسفورد وبولونيا وسلامانكا وباريس، وهو ما يعتبره بعض المؤرخين الغربيين تاريخياً لبدء الإستشراق الرسمي[٢].

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الاهتمام بالإسلام ولغته العربية في هذه الفترة كان بدفاع العمل الديني التبشيري[٣]، وكانت "اللغة العربية آنذاك كاللغة العبرية، تؤخذ لدراسة نصوص دينية من الدين المسيحي"[٤]. ومع بداية القرن السادس عشر، تزامن تعاظم قوة الأتراك ونفوذهم في أوروبا والخطر الذي شكلته على الديانة المسيحية، مع رغبة البابوية في توحيد الكنائس الشرقية فيها. كل ذلك صب الاهتمام على الدراسات الشرقية[٥] والعربية منها بشكل خاص كونها لغة الحضارة الإسلامية، وصدرت أول قواعد لغة عربية في أوروبا على يد بطرس ذي القلعة في غرناطة عام (١٥٠٥) [٦]، وتلى ذلك صدور أول كتاب باللغة العربية وهو "صلاة الصاوي" الذي طبع عام (١٥١٤م) في البندقية[٧].

وأدى الإهتمام الأوروبي المتزايد بالتجارة والمخططات السياسية في الشرق وخاصة بريطانيا وفرنسا، إضافة إلى إستمرار الحاجة إلى مؤلفات العرب والمسلمين العلمية في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها، إلى اتساع الاهتمام بالتعرف على الشرق، ليصبح اكاديمياً حيث تأسس أول كرسي للغة العربية في باريس عام (١٥٣٩م) وتحديداً في الكوليج دو فرانس الذي عهد به للأستاذ غليوم بوستل* (Guillaume Postel) (١٥١٠-١٥٨١م) الذي أسهم في تدريب تلاميذ من أمثال سكوالجر (J.Scoillger) (١٥٤٠-١٦٠٩م) وهو عالم موسوعي بالإستشراق.

---

(١) فوزي، فاروق عمر، الإستشراق والتاريخ الإسلامي [ط١، ياقوت، بيروت، ١٩٩٨٧] ص١٣١.

(٢) النجار، شكري، (لما الاهتمام بالشرق) المنشور في مجلة المفكر العربي، العدد٣، سنة ١٩٨٢، ص٦٣.

(٣) جواد، قيس خزعل، (تطور الصورة الغربية للشرق) المنشور في مجلة دراسات شرقية، باريس، العدد٢، السنة الأولى، ك٢، ١٩٨٢، ص٧٦.

(٤) فايشر، ب، الشرق في مرآة الغرب، [ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣] ص٦٣.

(٥) رودنسون، مكسيم، تراث الإسلام، ص٥٥-٦٢.

(٦) جبرا، يوسف، تاريخ دراسة اللغة العربية في أوروبا، [مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٢٦] ص١٤.

(٧) المصدر نفسه، ص١٥.

(*) هناك إيضاح عن حياته لاحقاً في الفصل الثاني من الرسالة.

وفي عام (١٥٨٦م)، تأسست مطابع الكاردينال فرديناند دو مدتيشي دوق تسكانيا التي أسهمت في طباعة أعمال ابن سينا الطبية والفلسفية بالإضافة إلى كتب القواعد والجغرافية والرياضيات.

وتكررت هذه العملية مع نهاية القرن السادس عشر في باريس وهولندا وألمانيا للحصول على معرفة أفضل للأعمال العلمية العربية[١].

وفي هذه المرحلة كان الخطر العثماني قد تراجع وبدأت الصلات السياسية والعلاقات التجارية تنمو بين دول أوروبا والعثمانيين.

تطورت حركة الإستشراق وبدأت تأخذ منحنى علمياً مع تزايد عدد كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية وتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس[٢](١٧٩٥م).

ومع ضعف الدولة العثمانية، ازدادت حدة الأطماع الأوروبية الاستعمارية في الشرق ومن أبرز مظاهرها حملة نابليون على مصر وبلاد الشام [٣] عام (١٧٩٨م)، والتي حملت معها أعداداً من العلماء الباحثين، في الوقت الذي بدأ فيه الغرب باستعمار العالم الإسلامي والإستيلاء على ممتلكاته، وهنا تجلى الإستشراق الحقيقي المنظم والذي تمثل بنبوغ بعض علماء الغرب من خلال إصدار عدد من المجلات[٤] وسرقة المخطوطات العربية[٥]، وبلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد، حيث رصدت الحكومات في هذه المرحلة الميزانيات الضخمة للمنظمات والهيئات التي تعمل من خلالها، وكان هناك تعاون وثيق بين كبار المستشرقين والمسؤولين في وزارات الخارجية والمستعمرات في الكثير من البلدان الغربية[٦].

وتميز استشراق القرن التاسع عشر بالنزعة الإستعلائية (نظرية الرجل الأبيض وحقوقه العنصرية) تجاه الأمم والحضارات الأخرى، أي ظهور النفس الإمبريالي، إلى جانب نزعة التعلق بالغرائب، باعتبار أن الشرق ينطوي على كل ما هو سحري، فضلاً عن التغير الشكلي في أسلوب مواجهة الإسلام، من العلني المباشر إلى الخفي المتستر بالعلمية والموضوعية.

---

(١) رودنسون، ماكسيم، جاذبية اللإسلام ترجمة الياس مرقص [دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢] ص٤٣.

(٢) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج١، ص١٥٣.

(٣) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص١٠.

(٤) الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٨.

(٥) جحا، ميشال، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص١٩.

(٦) الزيادي، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٩.

ازدهرت الحركة الإستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر، فظهرت الجمعيات والمجلات الإستشراقية، وعقدت المؤتمرات الدورية للمستشرقين التي تعكس تجمعهم وتحشدهم وتوجههم المخطط والمنظم، وكان أول مؤتمر لهم في باريس عام (١٨٧٣م)، وتوالت بعده المؤتمرات كل ثلاث سنوات[١].

وتواكب الإستشراق مع الإستعمار للوطن العربي والعديد من مناطق الشرق، في الوقت الذي ظهرت فيه محاولات جادة باتجاه الموضوعية في الكتابات الإستشراقية، مثّلها سلفستر دي ساسي الفرنسي[٢] De Sacy، وانتهت هذه المرحلة بانتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث برز النفوذ السياسي والإقتصادي الأميركي في المنطقة والعالم. وظهرت على إثرها حركة إستشراقية أميركية تركزت على الجوانب السياسية والإقتصادية، ورسمت من خلالها صورة للإنسان العربي والمسلم لا تختلف عما رسمه المستشرقون الأوائل.

والجدير بالذكر ان معظم الدول الأوروبية أسست مراكز بحوث ومعاهد متخصصة بالدراسات الشرقية المتنوعة والمختلفة شملت جوانب الحياة التاريخية والدينية والجغرافية كافة والآثار والآداب والعلوم والفنون واللغات وكل ما يتصل بالشرق، وتوزعت هذه المراكز بين المدن الأوروبية المختلفة وكذلك في العديد من العواصم الشرقية.

دوافع الإستشراق وأهدافه

تقف وراء حركة الإستشراق دوافع عدة تطورت بمرور الزمن واستقطبت إهتمام الأوروبيين منذ عصر اليونان والرومان للتوجه بل الإندفاع نحو الشرق، فكان هذا التواصل والاحتكاك عبر التاريخ والذي تجسد بأشكال مختلفة في أزمنة السلم والحرب، وشكل الجسور الأساسية لانتقال الحضارات وإنجازاتها العلمية.

ومما لا شك فيه أن الرغبة في الحصول على العلم لأجل العلم كتمهيد للتقدم والتطور، شكلت الدافع الأول والأساسي وراء انتقال العديد من العلماء والطلاب[٣] الأوروبيين إلى مدارس الأندلس، وغيرها من مناطق التماس بين العرب والمسلمين

---

(١) السباعي، مصطفى، الإستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم [ط١، مكتبة دار البيان، ١٩٦٨] ص١٧.

(٢) الجشعمي، عصمت، (دور المستشرقون في تخريب الثقافة والفكر العربي)، المؤرخ العربي، العدد ٢، ص٥٩.

(٣) ذنون، عبدالواحد، (اثر الأندلس في الفكر الغربي)، بحث قدم في ندوة فكرية في بيت الحكمة، تموز ١٩٩٧، ص٧٨، انظر كذلك: محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٧، وكذلك: عبدالفتاح عليان، أضواء على الإستشراق، ص٤٤.

والأوروبيين، والتي أشعت منها علوم العرب المسلمين (صقلية، فلسطين)[1] إلا أن هذه التوجهات لم تبق الأساس وراء الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، حيث تنوعت وتعددت الدوافع تبعاً للظروف السياسية والإقتصادية والدينية والثقافة التي مرت بها أوروبا والغرب.

(١) علي، سعيد حسين، (دوافع وآثار حركة الإستشراق الهولندي في مضمار الجغرافية العربية) مجلة الفيصل، شركة الطباعة السعودية، العدد ١١٩، الرياض، ك٢، ١٩٨٧، ص٥٩.

أولاً: الدافع العلمي:

كانت البدايات الأولى للإستشراق فردية، تحكمت بها الرغبة في الحصول على ما لدى العرب من علوم في مجالات الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفلسفة وغيره وليس أدل على ذلك من الترجمات الفردية الأولى من العربية إلى اللاتينية لأفراد من طالبي العلم من غربي اوروبا رغبة منهم في التعرف على علوم الأندلس، إذ كانوا يعودون إلى ديارهم بعد الإنتهاء من تعليمهم حاملين مخطوطات علمية باللغة العربية أو مترجمة إلى اللاتينية[١]، و عزز ذلك قيام بعض الحكومات الأوروبية بإرسال بعثات رسمية لتلقي العلم والفنون والصناعات في مدن الأندلس الكبرى[٢]، وقد اعتنق بعض من أعضائها الإسلام واختار البقاء في الأندلس، كذلك زواج فتيات منها من مشاهير رجال الأندلس[٣].

نشطت عمليات الترجمة لما احتوته المكتبات العربية آنذاك بقوة في القرن الحادي عشر، يأتي في مقدمة مشاهير المترجمين الشماس دومينيكو غونديسالفي Domenico Gundisallvi (١١٣٠-١١٧٠م)، والبريطاني أدلارد الباثي Adelard of Bath (١١١٦-١١٤٢م) والإيطالي جيرار الكرموني Geraro de Cremona (١١١٤-١١٨٧م). وتركزت الترجمة على الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان أولاً ثم امتدت لتشمل مختلف الكتب العربية في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة ولمؤلفين مسلمين أمثال الخوارزمي والفرغاني والفارابي وابن سينا والغزالي. واستمرت السيادة للعلوم العربية المنقولة في فرنسا وأوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي[٤]، ويذكر العديد من المستشرقين[٥] اثر الحضارة العربية على نهضة وتقدم أوروبا، وهذا ما يعزز الرأي القائل بأن جانباً أساسياً من الإستشراق اتجه إلى نقل العلوم العربية الإسلامية وفلسفتها.

ويقول غوستاف لوبون: "وظلت ترجمات كتب العرب، لاسيما الكتب العلمية، مصدراً وحيداً تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا، خمسة قرون أو ستة قرون،

---

(١) ذنون، عبدالواحد، (اثر الأندلس في الفكر الغربي) ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٤) لوبون، غوستاف، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر [مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٩] ص٥٦٨.

(٥) انظر: غوستاف لوبون، حضارة العرب. وانظر كذلك: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطح على الغرب [ترجمة فاروق بيضون، ط٣، المكتب التجاري للطباعة بيروت، ١٩٧٩] ص٣٠٩. وكذلك: لويس، برنارد، تاريخ إهتمام الإنكليز بالعلوم العربية [ط٢، المجتمع العربي] ص٦.

ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم، كعلم الطب مثلاً، استمر إلى أيامنا، فقد جرى شرح كتب ابن سينا في مونبلييه في أواخر القرن الماضي"[١].

والجدير بالذكر ان حاجة الأوروبيين للعلوم لدى العرب دفعت بعضهم، وفي زمن مبكر، لتعلم اللغة العربية وإجادتها، ليكون باستطاعتهم ترجمة المخطوطات العربية، وعليه أصاب هذا النوع من العلم تطوراً صاعداً ضمن إطار حركة الإستشراق الذي نظم في مرحلة لاحقة من خلال إنشاء المدارس الخاصة باللغات وكراسي اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى في الجامعات الأوروبية، كما سبق ذكره. ومما يذكر في هذا المجال ان أول مستعرب اوروبي تعلم اللغة العربية وسافر من أجلها إلى الشرق كان البريطاني ادلارد الباثي[٢].

وعلى الرغم من مظاهر الجهل والتخلف والأمية التي كانت تعيشها أوروبا في القرون الوسطى، إلا أن متطلبات الحضارة والتقدم كانت أقوى من تلك العوامل التي أسست لها الكنيسة[٣].

فقد عمل مفكرو أوروبا وعلماؤها بجد في البحث عن المخطوطات العلمية العربية ومتابعتها في شتى البلدان العربية، ولهذا السبب ظهرت أهمية الرحلة إلى البلدان العربية طلباً للعلم[٤].

ثانياً: الدافع الديني:

يقول ليوبولد فايس•: "إن كره الأوروبيين نحو الإسلام كره عميق الجذور، يقوم في الغالب على التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، لكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وقد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوسية لكنها تحتفظ دائماً في ما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن، أو مبني على التفكير عندما تتجه إلى الإسلام، يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في

---

(١) حضارة العرب، ص٥٦٩.

(٢) ناجي، عبدالجبار، أثر الحضارة العربية الإسلامية في الفكر الغربي، بيت الحكمة، بغداد، تموز ١٩٩٧، ص٢٥.

(٣) هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٠٨.

(٤) ناجي، عبدالجبار، أثر الحضارة العربية الإسلامية في الفكر الغربي، ص٣١.

• ليوبولد فايس أو (محمد أسد) صحافي من النمسا، ترك بلاده عام ١٩٢٢ ليتجول في أفريقيا وآسيا كمراسل لبعض الصحف، تجول في العديد من الأقطار الإسلامية، واحتك بأوساط المسلمين بشكل مباشر مدة لا بأس بها أدت به في النهاية إلى أن يشهر إسلامه وذلك في سنة ١٩٢٦. وأتخذ لنفسه اسم (محمد أسد). أنظر: أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ [ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧] ص١٢.

كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم كما لو أنه لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته"[١].

لقد كان لانتقال العلوم العربية والفلسفية وترجمتها في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا أثره الواضح في تنوير العقل الأوروبي، كما سبق وأوضحنا في الدافع العلمي، وذلك لمواجهة مختلف التحديات التي كانت تعيشها أوروبا والتي ساهمت الكنيسة وقساوستها إطباقها على الفكر والحؤول دون منافذ التقدم العلمي والحضاري، حيث بدأت تظهر هذه الآثار على شكل حركات تمرد ضد سلطة البابا في روما في القرن السادس عشر الميلادي[٢]، فضلاً عن ذلك الإقبال المنقطع النظير على تعلم اللغة العربية والبحث والكشف عن المخطوطات العلمية العربية من قبل الشباب النصارى، ومخالطتهم للمسلمين في مختلف شؤون حياتهم منذ مطلع القرن التاسع الميلادي[٣] والتي فتحت عيونهم على الفوارق الجوهرية بين سلوك رجال الدين المسيحيين وفي مقدمتهم باباوات روما وبين ما جاء به الإسلام[٤]. وهذا ما حدا بأحد الأساقفة الذي سبقت الإشارة إليه ليعبر عن تذمره وينتقد ظاهرة ابتعاد الشباب المسيحي عن لغته ودينه وإنكبابه على لغة العرب وعلومهم، فضلاً عن انتشار الإسلام في العديد من المناطق على حساب المسيحية بعد أن طرد الروم من أرض العرب.

كل هذه العوامل شكلت الأساس للدافع الديني الذي هيمن على جانب أساسي من علاقة أوروبا والغرب بالعرب المسلمين[٥].

يعتبر رودي بارت أن بداية الإستشراق هو تاريخ أول ترجمة للقرآن عام (١١٤٣م) ويرى أن الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية هو التبشير لإقناع المسلمين بلغتهم بترك الإسلام والإلتحاق بالدين المسيحي[٦]. ولذلك أنشئت كراسي الأستاذية لتعليم العربية وغيرها من اللغات الشرقية في العديد من الجامعات الأوروبية سنة (١٣١٢م) كما انتشرت المدارس التي تنتج المبشرين كما

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٣.

(٢) السامرائي، قاسم، الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية، ص٢٦.

(٣) الأوسي، حكمت علي، من أعلام الإستشراق الأسباني، ص١٢١.

(٤) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص٤٣. أنظر كذلك: الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص٦٤.

(٥) بارت، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص١٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٩.

أسلفنا، خاصة وأن المسيحية تبشيرية في أصل جوهرها[١] تستند إلى فكرة الحوارية والرسالية أي المرسلين المسيحيين مثل بطرس في روما ويعقوب في أسبانيا، كما تستند إلى فكرة أنه من أدخل غير مسيحي إلى الديانة المسيحية دخل الجنة[٢].

كما أن لحقبة الحروب الصليبية دوراً مهماً في تأجيج التوجه الإستشراقي الديني. وفي الوقت الذي تركز فيه اهتمام وجهود المبشرين والرهبان للطعن بالإسلام رسالة ونبياً وكتاباً وشريعة[٣]، ثمة موقف سلبي من الدين والتديّن بشكل عام عبّر عن نفسه بصيغة موقف عدائي من الإسلام ونبيه من قبل بعض الكتاب والمستشرقين الأوروبيين.

ثالثاً: الدافع الإستعماري

الإستعمار هو التسلط والهيمنة من طرف على طرف آخر إلى حد استلاب إرادته وشخصيته وتسييره وفق رؤى الطرف المستعمر. وعلى مستوى الأمم والشعوب هو تحكم شعب بشعب آخر[٤]. وهو نتيجة إختلاف موازين القوى بين الشعوب، ما يعطي الحق للقوي على الضعيف إذا ما كان هذا القوي يفتقر للمبادئ الإنسانية وقيم الفضيلة والخير.

يقترن هذا التسلط بالظلم والإستغلال والطغيان والقسوة، وخير من يعبر عن هذه الفكرة تاريخياً الإمبراطورية الرومانية التي قامت على مبادئ الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الأخرى، ومنهم العرب، لفائدة الوطن الأم وحده (روما) في سبيل الترفيه عن فئة "ممتازة". لم ير الرومان في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم إنحطاطاً و"العدل الروماني" الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم[٥].

وفي مثل هذه التربة نشأت المدنية الغربية الحديثة، وهكذا هو موقف الدول المستعمرة كافة، حيث تستغل ثروات البلاد التي تحكمها وتستغل جهود أهلها في سبيل الترفيه عن شعبها فقط، في حين أن الدولة العربية - الإسلامية التي انتشرت في زمن قياسي على بقاع مترامية الأطراف استندت بقوتها إلى نشر فكرة (رسالة) اعتبرها العرب بمثابة الحقيقة الدينية السامية[٦].

---

(١) الكعاك، عثمان (التبشير والتخطيط التبشيري) مجلة الفكر الإسلامي، العدد ٢، السنة الخامسة، بيروت، شباط ١٩٧٢، ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٣) السباعي، مصطفى، الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص١٨. انظر كذلك: عليان، عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص٤٣.

(٤) الخربوطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص٧٠.

(٥) أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٣٨

(٦) المصدر نفسه، ص٧٩.

وهذا ما يفسر إنسحاق الروم أمام العرب المسلمين رغم الفارق الجوهري في العدد والعدة بين الطرفين. فعلى أساس هذا الفهم، مورس الإستعمار تجاه البلاد العربية والإسلامية من قبل الغرب. هذا الاستعمار الذي مهدت له عمليات الغزو الثقافي المتواصلة عبر قرون وصولاً لاستلاب الفكر العربي الإسلامي[١]. وكان للإستشراق دور بارز في تمكين القوى الأوروبية الإستعمارية من إحكام قبضتها على الوطن العربي والعديد من الدول الإسلامية والشرقية، فقد قدم العديد من المستشرقين خدماتهم بشكل مباشر لحكوماتهم عبر تكليفهم بمهام إستطلاعية ودراسات حول البلاد التي يستهدفونها. والمعروف أيضاً أن هناك أسماء لامعة في سماء حركة الإستشراق كانت موظفة بشكل مباشر في وزارات المستعمرات للحكومات الأوروبية في إنكلترا وفرنسا وغيرها[٢]. وفي هذا المجال استهدف الإستشراق القضاء على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن[٣]، وضرب إرادة المقاومة لدى العرب المسلمين من خلال التشكيك بصحة عقيدتهم[٤] لإرغامهم على قبول نفوذ الغربيين والرضا بولايتهم والخضوع لتوجهاتهم.

وتجدر الإشارة إلى الترابط والتوازي بين الدافعين الديني والإستعماري، ولا شك في أن الحروب الصليبية، وقبلها ما سمي بحروب الإسترداد (في إسبانيا) مثلت بداية اللقاء بينهما والتي ما إن فشلت في تحقيق أهدافها (الحروب الصليبية) حتى تحول كلا الدافعين الديني والإستعماري إلى سلوك طريقي الإستشراق والتبشير (ولا غرابة في أن يكون أغلب المستشرقين الأوائل من رجال الدين) في محاولة لضرب العرب والمسلمين من خلال دراسة لغاتهم وتاريخهم وآدابهم وحضارتهم ودينهم وفهمها[٥].

الخلاصة

ثمة آراء مختلفة حول الإستشراق بخصوص كونه علماً أم ظاهرة أم ممارسة فكرية من الغرب تجاه الشرق.

فالقائلون به علماً يستندون في حجتهم إلى أن المستشرقين يستخدمون وسائل ومناهج البحث العلمي في دراساتهم وبحوثهم وكذلك الأمر بالنسبة لدارسي نتاجات

---

(١) عربي، محمد ياسي، الإستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي [ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط١٩٩١] ص١٤٣.

(٢) الساموك، العاني، مناهج المستشرقين، ص٢٢.

(٣) الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، ص٨٢.

(٤) الجشعمي، دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي، ص٦٠.

(٥) جحا، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص٣٠.

الإستشراق والمستشرقين، ويعتبرون بأن هذه المنهجية بالتأكيد بعيدة كل البعد عن ميولهم وأذواقهم الخاصة.

ومما يقلل من دقة هذا الرأي وصحته بالرغم من صوابية التحليل أن العملية الإستشراقية لا تنطوي على اكتشاف أو استخلاص قوانين علمية كما لا تحكمها قواعد وقوانين خاصة بها. وعليه أعتقد أنه لا يكفي فقط إستخدام المنهج العلمي في دراسة نتاجات الشرق أو في دراسة نتاجات المستشرقين ليكون الإستشراق علماً قائماً بحد ذاته.

وثمة فئة ترى في الإستشراق ظاهرة[1] ثقافية فرضتها ظروف معينة دينية واقتصادية وسياسية لدى كل من الغرب والشرق، مؤكدةً أن الإستشراق انتهى بانتفاء حاجته، وبما أنه لا يتسم بصفة الثبات والإستمرار فهو ظاهرة مرت بمراحل متعددة درست موضوعات مختلفة خلالها.

وإذا سلمنا بعدم الثبات والإستمرارية سمة مميزة لأي ظاهرة، فإن الإستشراق لم ينته ولن ينتهي، لأن الدوافع الحقيقية الأساسية وراءه كانت وما زالت قائمة حتى يومنا هذا.

فالأطماع الغربية، لما ينطوي عليه الشرق من ثروات من جهة أخرى، قائمة حتى الآن. وعليه قد تتغير العناوين والوسائل تبعاً للظروف التي تمر بها علاقة الشرق بالغرب، إلا أنه سيبقى هناك دراسات ودارسون لنتاجات الشرق الثقافية، ولأحواله وأوضاعه المختلفة من قبل الغربيين.

وهناك من اعتبر الإستشراق مجرد أسلوب بحث فكري للغربيين تجاه الشرق لتحقيق مطامعهم[2] أو عملية إسقاط للغرب بمكنوناته وإرهاصاته على الشرق.

وعلى الرغم من أهمية النظر إلى النتائج لما تسهم به في تحديد سمة الإستشراق التي استند عليها هذا الرأي، فإنه لا يكفي لنحكم عليه من خلال نتائجه مع التسليم بأهمية ذلك كما أسلفنا، بمعنى أن النتائج السلبية ليست دائماً مقصودة بتخطيط مسبق، وإنما قد تكون نتيجة لقصور في أدوات التحليل والمنهج.

ولا بد من الإشارة إلى حقيقة تاريخية وإنسانية في الوقت ذاته، مفادها أن المجموعات البشرية والأقوام تشترك في سمة التواصل الإنساني في ما بينها، والذي يتخذ أشكالاً مختلفة، إيجابية وسلبية، تبعاً للعديد من الظروف المحيطة بالمجتمعات البشرية، طبيعية كانت أم سياسية، إقتصادية، دينية، ثقافية... الخ.

ومما هو مسلم به أن ما وصلت إليه البشرية لم يكن من فعل أمة واحدة أو شعب واحد أو مجتمع واحد، بل هو نتاج الجهد المشترك للبشرية عبر تعاقب مراحل

---

(١) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١.

(٢) سعيد، أدوارد، الإستشراق، المعرفة، السطلة، الإنشاء، ص٣٨.

تطورها من جهة، وهي مدينة من جهة أخرى للتفاعل الإنساني بين الأمم والشعوب، من خلال انتقال النتاجات الحضارية والثقافية من مجتمع إلى الآخر فضلاً لما كان للرسالات السماوية والأنبياء من دور رئيس في هداية البشرية على ما يصلح حالها.

وبالتالي يعتبر الإستشراق توجهاً أجنبياً تجاه الشرق عبّر عن نفسه بخصائص مميزة من خلال دوافع وأهداف مختلفة في كل مرحلة من مراحل تطوره.

الفصل الثاني

{الإستشراق الفرنسي – الأصول التاريخية والدوافع}

المبحث الأول : {أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية}

المبحث الثاني : {دوافع الإستشراق الفرنسي – نماذج من المستشرقين والمؤسسات الإستشراقية الفرنسية}

المبحث الأول

أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية

ولد الإحتكاك العربي الإسلامي بفرنسا في أواخر القرن الثامن الميلادي عندما بدأ نشاط العرب العسكري يتوغل في أوروبا إنطلاقاً من الأندلس[١] وكان من أبرزها معركة بلاط الشهداء وما لحقها من صدامات عسكرية، لتبدأ بدلاً من الصدام صلات دبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان[٢] التي تكشف الهدايا المتبادلة بينهما على الطبيعة الحضارية لكلا الطرفين.

إلا أن المصادر لم تذكر شيئاً عن توجه استشراقي فرنسي إلا في القرن العاشر الميلادي مع جربرت دي أورلياك• الذي أصبح في ما بعد بابا لكنيسة روما سنة (٩٩٩م) باسم سلفستر الثاني (٩٣٠-١٠٠٣م) وكان أول فرنسي يعتلي كرسي البابوية. ويقول بدوي عنه أنه "البابا الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم لدى العرب وعلى أيديهم في الأندلس، فدرس الهندسة والفلك، وأدخل الأرقام العربية والساعة ذات الميزان إلى فرنسا"[٣] وهو من الأسماء البارزة التي وفدت إلى الأندلس طلباً للعلم، حيث شهدت تلك المرحلة الممتدة من نشأة الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (٧١١م) حتى سقوطها (١٤٩٢م) توافد العديد من طلاب العلم الأوروبيين ومنهم الفرنسيون[٤] لينهلوا من معين المدارس الأندلسية، في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة. وتمثل أول تعاطي إستشراقي للفرنسيين مع الإسلام في أول ترجمة للقرآن الكريم إضطلع بها بطرس المحترم أو الناسك (Pierre le Venerable) عام (١١٤٣م)[٥]. وبطرس هو راهب لاهوتي فرنسي (١٠٩٢-١١٥٦م) زار أسبانيا حين

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٥٧.

(٢) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة [مطبعة الجامعة السورية، سوريا، ١٩٥٨] ص٣٦١.

• ولد سنة (٩٣٠م) في أورلياك Oraliac في إقليم الأوفرون، نشأ في دير سان جيرو Saint Gerault من الرهبانية البندكتية (المؤسسة عام ٥٢٩م). قصد الأندلس وتعلم في مدارس ريبول وأشبيليهونقرطبة. أهم مؤلفاته (رسائله - الخطب - مؤلفات جربير في الرياضيات) لمزيد من الإطلاع انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٢٠.

(٣) بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين [ط٣، دار العلم للملايين، تموز ١٩٩٣] ص١٧٩.

(٤) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٥١٨.

(٥) بدوي، موسوعة المستشرقون، ص١١٠.

كان رئيساً لدير كلوني• للإطلاع على أحوال رعيته، والإستزادة من العلوم العربية في الأندلس فاطلع خلال زيارته على المجادلات القائمة بين المسلمين والمسيحيين، فتولدت لديه قناعة بأن الرد على ما كان يردده (هرطقة محمد)[1] لا يكون إلا بقوة الكلمة والحجة المنطقية، وتعلم اللغة العربية، وهذا يحتاج برأيه إلى المعرفة العميقة بالدين الإسلامي، لذا قرر أن يعمل على ترجمة القرآن، مستعيناً بمدرسة المترجمين في طليطلة، حيث وافق كل من الراهبين الإنكليزي روبرت كينيت (Robert Kennet) والألماني هيرمان الدالماتي (Hermann De Dalmatie) على العمل مقابل مبلغ مغر من المال.

كما جرى عمل على ترجمة نصوص من كتاب "مسائل عبدالله بن سلام"، أحدها يتضمن حواراً بين الرسول (ﷺ) وبعض أحبار اليهود والتي أدت إلى إسلام ابن سلام وآخر عن حياة الرسول عليه السلام (مولده وطفولته) والثالث موجز لتاريخ الإسلام حتى الحسين بن علي عليه السلام.

وعمل على ترجمة مخطوط (في علم الكلام) من العربية إلى اللاتينية حيث كلف بذلك بطرس التولوني (Peter of Toulon) وساعده في ذلك أمين سره الخاص بطرس البكتافينسي (Pierre De Poitiers) [2].

والجدير ذكره أن هذه الترجمة للقرآن الكريم جاءت مليئة بأخطاء وتحريفات ونواقص لأن المترجم لم يلتزم بالترجمة الحرفية لكلام الله تعالى•. ونقلت هذه الترجمة إلى الإيطالية (١٥٤٧م) ومنها إلى الألمانية (١٦١٦م) ومن الألمانية إلى

• من أشهر الأديرة الرهبانية في التاريخ الأوروبي الوسيط: تأسسسنة (٩١٠م) في منطقة اللوار في فرنسا من قبل الرهبانية البندكتية، لعب دوراً كبيراً في التحريض للحروب الصليبية. وصل عدد من رهبانه إلى سدة البابوية في روما. ترأسه بطرس المحترم في آب (١١٢٢م)، وأصلحه إصلاحاً واسعاً وضمن له ولفروعه في فرنسا وأسبانيا وغيرهما، موارد مالية واسعة نتيجة اتصالاته السياسية بأمراء أسبانيا وفرنسا. انظر: رودنسون، تراث الإسلام، في هامش مقالته بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، ص٣٧، كذلك انظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٠.

(١) فوك، يوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٣-١٤-١٥. أنظر كذلك رودنسون. تراث الإسلام، العدد٨، ص٣٧.

(٢) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٦.

• لصعوبة إدراكه المضمون الروحاني السامي، اضطر إلى إعطاء معنى أو فحوى عام لكل آية من الآيات دون التقيد بعلم القراءات أو التفسير. واعتمد "ترجمة مضمون فكرة كل آية من كل سورة، مما جعله أحياناً يعطي عكس المعنى المراد في الآية. فمثلاً ترجمة سورة الهمزة (ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالاً وعدده، يحسب أن ماله أخلده) حيث ورد.. الذي سيخلده ماله فحذف (يحسب). الأمر الذي أعطى المعنى المعاكس للمعنى المراد في الآية الكريمة".
أنظر: فوك، ويوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٧.

الهولندية (١٦٤١م)، ما يدل على أنها بقيت الترجمة المعتمدة في أوروبا، رغم علاتها[١] لفترة طويلة.

وجاءت الحروب الصليبية لتشكل، بحكم المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها (١٠٩٦-١٢٥٤م) وما تخللها من معارك واتفاقات وحرب وسلم، حالة تفاعل عنيفة بين العرب المسلمين، وبين المجموعات البشرية التي وفدت من أوروبا وأوجدت "حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلية ومرضية لإيديولوجية الخصوم"[٢] المسلمين.

كما كانت إحدى نقاط التماس الحيوية بين الشرق والغرب، بين أوروبا والعرب، وخصوصاً فرنسا التي آلت على نفسها في مرحلة من المراحل الدفاع عن الكاثوليكية، وأن تكون حاميتها المتقدمة في أوروبا ومنها بدأت فكرة الحروب الصليبية من خلال خطبة البابا أوربان الثاني (Urban II) الشهيرة في دير كلوني (Cluny) في كلير مونت (Clermonte) الفرنسية[٣].

وتعددت وتشعبت دوافع الحروب الصليبية، مع تعدد الفئات والشرائح التي شاركت فيها، حيث التقى الدافع الديني (الظاهري) مع الدوافع الأخرى الخفية (السياسي الإقتصادي الثقافي) وحتى الدافع الشخصي (المغامرات)[٤]، فأوجدت هذا المنعطف التاريخي في علاقة الشرق بالغرب والإسلام بالمسيحية والعرب بأوروبا، وتركت آثارها العميقة على المستويات كافة حتى يومنا هذا.

إحتاجت الروح التعصبية التي ولدتها تلك الحروب، أوروبا بكاملها، حيث حققت وحدة بدت متراصة بوجه العالم الإسلامي، حيث "كانت أوروبا كلها تتحرك لتقاتل جنباً إلى جنب مع الإسبان لاستعادة الأراضي المحتلة (Reconquista)• وكان لا بد للوحدة المسيحية التي أشاد بها الباباوات من أن تدعم عن طريق المشاريع الضخمة التي كانت تقام بانتظام تحت الإشراف البابوي؛ فأي واجب مشترك يمكن أن يكون أكثر تحفيزاً من استرداد الأراضي، إذا كان ممكناً نشره في أنحاء عالم البحر المتوسط كافة"[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨. أنظر كذلك: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١١.

(٢) رودنسون، تراث الإسلام، ص٣٤.

(٣) زهير الدين، صالح، الإسلام والإستشراق [مطبعة الندوة الجديد، بيروت، ١٩٩١] ص٩.

(٤) يوسف، جوزيف نسيم، في تاريخ الحركة الصليبية [دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩] ص١٩.

• مصطلح أسباني ظهر في التاريخ الأسباني إبان الحروب التي انتهت بسقوط الأندلس وكان يقصد به (استرداد الأراضي المحتلة).

(٥) رودنسون تراث الإسلام، العدد ٨، ص٣٠.

كانت فكرة الحروب الصليبية التي اندلعت في "الغرب والشرق" •• بشكل متزامن والتي حققت أوروبا عامة ومنها فرنسا على وجه الخصوص فوائد كثيرة في هذا النزاع، حيث أن النهضة في مجالات العلوم والفنون والآداب التي شهدتها فرنسا تعود في بعض مراحلها إلى هذا الاتصال العنيف والطويل بين الشرق والغرب، فقد اقتبس الفرنج (يسمون في أوروبا بالصليبيين) من عادات العرب وتقاليدهم في المأكل والملبس وبناء البيوت. يقول العقيقي: "وكان هيلاري••• اقتبس بعض الترانيم التي نقلها إلى اللاتينية... وأخذ الرهبان في الحملات الصليبية عن النصارى الشرقيين عبادة العذراء وصلاة السبحة"(١).

كما صنّفوا كتباً عن الشرق وأهله، ضمّنوها مشاهداتهم وملاحظاتهم. ووضع بعضهم كتباً وبحوثاً عن الحملات الصليبية، إذ ألّف وليم الصوري الفرنسي (١١٣٠-١١٩٠م) مثلاً في الحملات الصليبية الأولى تاريخاً بعنوان (حوادث ما وراء البحار) سنة (١١٨٤م)، ما زال مرجعاً يعود إليه الباحثون حتى هذه المرحلة، وقد خصص جزء منه عن الحضارة الإسلامية، ينكرها بالكثير من الإعجاب، وكتب السير دو جوان فيل (De Join Ville) سيرة ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) في حملته الصليبية سنة (١٣٠٩م)، "وأطنب في ذكر صلاح الدين"(٢)، وذلك بحكم علاقته بملك فرنسا ومشاركته له في الحملة على مصر.

إلا أن اشتداد العدواة الغربية للعرب والإسلام، خاصة بعد انهيار الإمارات الصليبية الواحدة بعد الأخرى حتى تحرير بيت المقدس، كان من أبرز نتائج الحروب الصليبية، حيث لم يقتصر شرهم على الفظائع المروعة التي اقترفها "الفرسان الصليبيون الأتقياء"• والتخريب والإنحطاط الذي خلفوه، لكنه كان قبل كل شيء شراً ثقافياً ما زالت ذيوله حاضرة حتى عصرنا الحاضر(٣).

هذا العداء الغبي عامة، والفرنسي خاصة، والذي عجز عن تحقيق ما يصبو إليه من مآرب للذيل من الإسلام بقوة السلاح، كان لا بد له من البحث عن وسائل جديدة قادرة، من وجهة النظر الأوروبية، على تحطيم أهم أسباب المنعة والقوة لدى

•• ويقصد بها الحروب التي جرت في شبه الجزيرة الأيبرية والتي أنتهت بسقوط الدولة العربية الإسلامية سنة (١٤٩٢م) والحروب الصليبية التي استهدفت الشرق العربي الإسلامي.

••• هيلاري: أسقف بواتييه (ت ١٣٦٧م). كان قد نفي إلى لبنان مدة طويلة. انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٨.

(١) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٩.

• يوسف، جوزيف نسيم، في تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٢. يتحدث في فصل تحت عنوان (بربرية الفرنج وتحضر العرب) عما ارتكبه الصليبيون من فظائع وجرائم بحق الإنسانية والأديان حيث لم يراع حرمة الأماكن المقدسة أو غيرها.

(٣) أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٥٦-٥٨.

العرب المسلمين والتي تجسدت في تلك الفترة بالإعتصام بالإسلام وكتابه ونبيه العربي.

وعليه استلزمت المعرفة المتعمقة بالعرب والإسلام وحضارتهم ودينهم وتاريخهم ولغتهم، فتعالت الدعوات•• التي توجت بقرار مجمع فيينا الكنسي (١٣١١-١٣١٢م)[١] القاضي بتأسيس كراسي تدريس اللغة العربية في بعض الجامعات الأوروبية ومنها جامعة باريس.

كان لسقوط القسطنطينية (١٤٥٣م) إنعكاس كبير على الغربيين عموماً والفرنسيين خاصة، الأمر الذي حملهم على الشعور بتفوق العثمانيين[٢].

فهذه الأمبراطورية التي أسست في القرن الرابع عشر الميلادي أدركت السبل الكفيلة باستثمار تاريخ المنطقة وحضارتها فأفلحت في أقل من قرن ونصف في الإستيلاء على مساحة واسعة من آسيا وأوروبا وأفريقيا، وكوّنت القوة الأولى في حوض البحر المتوسط. وهذا ما دفع الدبلوماسية الفرنسية في زمن فرانسوا الأول• إلى محاولة كسب ود الباب العالي في زمن سليمان القانوني••، لمواجهة الخطر المتمثل بالنمسا[٣]. وعلى ضوء المعاهدة التي وقعت بين فرانسوا وسليمان، تم تشجيع جهود التعرف على الإمبراطورية العثمانية، الذي توج باستحداث كرسي الدراسات العربية في الكوليج دو فرانس College de France سنة (١٥٣٩م)[٤] كما أنشأ الملك كرسيين للعبرية اليونانية. هذه الكلية أصبحت في ما بعد كلية فرنسا الأولى، دُرّست فيها اللغات الشرقية، وكانت نقطة إنطلاق للإستشراق الفرنسي بأوسع أشكاله المنظمة[٥].

•• أشهر من دعا لذلك أحد طلائع المستشرقين الأوروبيين (رايموندو لوليو (١٢٣٥-١٣١٤م) R. Lutio انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٤.

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٤.

(٢) فريمو، جاك، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح [ط١، الأرض، قبرص، ١٩٩١] ص١٨.

• فرانسو الأول: هو فرنسيس الأول (١٤٩٤-١٥٤٧م) حكم من سنة (١٥١٥-١٥٤٧م) تحالف مع سليمان الأول، وقد رعى الفنون والآداب. لمزيد من التفاصيل، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٢٩٤.

•• سليمان الأول (١٤٩٤-١٥٦٦م). بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج سطوتها في عهده، واصل فتوحات أبيه في البلقان. تحالف مع فرانسوا الأول سنة (١٥٣٦م) وبقى هذا التحالف أساس السياسة التركية الخارجية مدة ثلاثة قرون. لمزيد من الإطلاع انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص١٠٠١.

(٣) فريمو، فرنسا وافلام، من نابليون إلى ميتران، ص١٨.

(٤) ناجي، عبدالجبار، تطورالإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٢٩.

(٥) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٢.

من جانب آخر، أثمرت سياسة توثيق العلاقة بين فرنسا والعثمانيين عن فتح سفارة فرنسية في القسطنطينية[١]، وإقامة العديد من القنصليات في مدن الإمبراطورية، الأمر الذي أظهر حاجة الفرنسيين لتعلم اللغة التركية العربية وأدى إلى إنشاء مدرسة شباب اللغة في القسطنطينية في دير الكبوشيين. وأخذ الشباب الفرنسي يتلقون الثقافة العربية في هذا الدير بعد تلقي تعليم أولي في كلية لويس الكبير في باريس قبل أن يبعث بهم إلى القسطنطينية. هذه المدرسة عملت على ظهور أوائل المستشرقين الفرنسيين[٢].

كما كان لتأسيس المكتبة الوطنية الفرنسية[٣].Librairie Nationale Francaise (١٦٥٤م) أهمية تذكر في هذا المجال، حيث ازداد السعي لاقتناء نفائس المخطوطات الشرقية عبر الممثلين الديبلوماسيين ونقلهم بشكل مشروع أو غير مشروع عشرات المخطوطات العربية المهمة التي ما زالت تشكل حتى اليوم مجموعة من أندس وأغنى مجاميع المخطوطات الشرقية، لا سيما بعد أن أصبحت المكتبة الوطنية الوحيدة في فرنسا.

وحظيت الدراسات العربية في فرنسا منذ القرن السادس عشر بأهمية ملحوظة، ودور كبير في تنشيط حركة الإستشراق الفرنسي، حيث أسهمت في إنضاج معرفة الفرنسيين ببلدان وسكان الشرق من عادات ولغات وآداب[٤]، فبلغت أوجها عندما أقدم المستشرق الذائع الصيت سلفتر دو ساسي (Silvester De sacy) على مناشدة حكومة الثورة الفرنسية (Conventions) على تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، حيث وافقت الحكومة عليها سنة (١٧٩٥م)[٥].

يتفق الباحثون والمؤرخون على أن الثورة الفرنسية• لم تكن مجرد حدث عارض في التاريخ الفرنسي والأوروبي، بل حلقة رئيسية ضمن سلسلة من الأحداث التي اتسع نطاقها لتشمل أوروبا.

---

(١) منتران، روبير، (الإستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه) ترجمة يوسف حبي المنشور في مجلة الإستشراق العدد الثاني، شباط ١٩٨٧، ص٣٣.

(٢) منتران، روبير، (الإستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه) ترجمة يوسف حبي المنشور في مجلة الإستشراق العدد الثاني، شباط ١٩٨٧، ص٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٩.

(٤) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٧٧-٧٨.

(٥) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٤.

• ثورة شعبية، نشبت في فرنسا آبان حكم الملك لويس السادس عشر، توالت أحداثها بين عامي (١٧٨٩-١٧٩٩م)، تمخضت عن آثار سياسية وإجتماعية هامة في الغاء النظام الإقطاعي، والملكية الإستبدادية، وإعلان حقوق الإنسان. بدأت باجتماع ممثلي الشعب بتهديد من الجماهير المتظاهرة. تحول المجلس إلى جمعية، بلغت الأحداث ذروتها في ١٤ تموز بالإستيلاء على

ويعود هذا التأثير إلى مكانة فرنسا وثقلها السكاني من جهة حيث كانت تشكل نصف تعداد سكان أوروبا حينها، ومن جهة أخرى إلى مكانتها السياسية والعلمية خاصة، حيث كانت باريس عاصمة[١] الثقافة والفنون والآداب والعلوم. كما كان لإعلان المبادئ التي شرعتها الثورة الفرنسية وأكدت على الحرية والإخاء والمساواة، سحر لا يقاوم أسهم في تلك المتغيرات التي عصفت بأوروبا في ما بعد.

وتعد الثورة الفرنسية إحدى نتائج عصر التجديد والتنوير الذي نتج في أحد جوانبه عن الاحتكاك الحيوي بالثقافة العربية الإسلامية، حيث بزغ في أوروبا وفرنسا بالذات، ومع اقتراب الحضارة العربية الإسلامية، نور عقلي متعطش للرقي والتقدم[٢]، فانتشرت الثقافة الكلاسيكية بفضل المدارس وأفكار الفلاسفة والقراءة والصالونات الأدبية وجمعيات الفكر[٣].

وبسبب النتائج السيئة التي خلفتها كنيسة العصور الوسطى - وعجز حركات الإصلاح الديني عن تحقيق النجاح الروحي الحقيقي - ضعفت السلطة الروحية للتفكير الديني المسيحي "إلى أن أزيلت سيطرة الكنيسة تماماً بفعل الثورة الفرنسية في فرنسا نفسها، ثم بآثار تلك الثورة في البلاد الأوروبية الأخرى"[٤].

إنعكست هذه التطورات بوضوح على العقلية الأوروبية عموماً والفرنسية خصوصاً، وذلك بتوجيه رؤيتها وموقفها من الشرق ونتاجاته وأسلوب التعامل معه، والتي برزت في كتابات العديد من المستشرقين الفرنسيين خلال وبعد الثورة.

وكان لطبيعة التطورات التي وقعت بعد الثورة الفرنسية، وما يتعلق منها بالحروب التي خاضتها فرنسا مع الممالك الأوروبية المناهضة لها، وما أحدثته هذه الحروب من نزيف في الطاقات والثروات الفرنسية، وخسارة بعض المستعمرات، علاقة في دفع العقلية الإستعمارية إلى واجهة القرار، لتنظر إلى الشرق تعويضاً لما في مواجهة الحلف الأوروبي المضاد للثورة، وسعياً وراء الإنتقام من الإنكليز الذين

سجن الباستيل وهدمه (أصبح في ما بعد هذا اليوم عيداً وطنياً فرنسياً) وقد مهدت جملة عوامل لقيام الثورة التي امتدت آثارها الفكرية والسياسية إلى شتى أنحاء العالم، من إنتشار المبادئ المتحررة التي بثها عدد من المفكرين أمثال – فولتير – مونتسكيو – روسو- وعلى يد المجلس الوطني تقرر إلغاء الملكية وإعدام الملك والملكة، وكثير من طبقة النبلاء وإعلان الجمهورية الفرنسية الأولى. وجعلت شعارها الحرية- الإخاء- المساواة. وانتهت هذه المرحلة من الثورة عام (١٧٩٩م) باستيلاء نابليون على الحكم. انظر: عطية الله، أحمد، الثورة الفرنسية، دائرة المعارف الحديثة، [ط٢، مكتبة الإنجلو مصرية] ج٢، ص٥٧٨.

(١) كارليل وهيبرت، الثورة الفرنسية [دار المستقبل، الإسكندرية] ص٥.

(٢) اسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٤٣.

(٣) سوبول، البير، تاريخ الثورة الفرنسية ترجمة جورج كوسي [ط٢، بيروت] ص١٤.

(٤) اسد، محمد، الإسلام علىمفترق الطرق، ص٤٤.

حرموا فرنسا من بعض مستعمراتها[1]، الأمر الذي حث الفرنسيين على تشجيع الدراسات الإستشراقية، وخلق أجيال جديدة من المستشرقين المتعمقين بلغات وأحوال البلاد العربية والإسلامية. وكانت مدرسة اللغات الحية (١٧٩٥م) التي سبق ذكرها تعمل على تهيئة الشباب الملم بلغات الأمم والشعوب المستهدفة (العربية – العبرية – السريانية ـ التركية)، كما ظهر العديد من كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الفرنسية كافة أمثال السوربون وليون وفانس وبواتيه.

الحملة الفرنسية على مصر

كانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) بقيادة نابليون بونابرت• خير معبر عما تقدم، إلى الحد الذي دفع ببعض الباحثين إلى اعتبارها البداية الحقيقية للإستشراق الفرنسي، لما انطوت عليه من أهداف سياسية واقتصادية وعلمية وثقافية حيث تؤكد المصادر المختلفة أن أبرز ما تميزت به هو اصطحابها لجيش من المستشرقين العلماء في ميادين العلم المختلفة[2].

وما عزز الحماس الفرنسي لغزو مصر صورة الوضع في الشرق عموماً ومصر خصوصاً، والذي رسمته تقارير السفراء والدبلوماسيين والقناصل الفرنسيين في القسطنطينية ومصر، وكتابات الشعراء والأدباء الفرنسيين الذين قاموا برحلات إلى الشرق. وحيث كان لنشر مذكرات البارون دي فوت (Defot) (١٧٨٤م) حول زيارته إلى الشرق تأثير كبير في توضيح صورة مصر، والتي ذكر فيها أن الواجب يقتضي من فرنسا السيطرة على مصر، إن هي أرادت الإستئثار بتجارة البحر المتوسط مع الشرق، لا بل بإحكامها السيطرة على تجارة الهند كذلك، كما تعتبر

---

(١) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر [دار الفكر العربي] ص٢٢.

• ولد عام (١٧٦٩-١٨٢١م) في أجاكسيو في كورسيكا، دخل الجيش عام (١٧٨٥م) وتخصص ضابط مدفعية، ذاعت شهرته من خلال الإنتصارات التي حققها في النمسا وفي شمال إيطاليا. قاد الحملة الفرنسية على مصر. وعاد منها عام (١٧٩٩م) للإطاحة بالحكومة وأصبح حاكماً مطلقاً على فرنسا حتى عام (١٨١٤م). غزا روسيا. تخلى عن السلطة في (١٨١٤/٢/١١م) ومنح حكم إمارة البا واحتفظ بلقب إمبراطور. هرب من البا في شباط (١٨١٥م) وحكم باريس بصفته إمبراطور لمدة مئة يوم والتي انتهت في معركة واترلو في حزيران (١٨١٥م) حيث أسر ونقل إلى سانت هيلينا حيث قضى نحبه عام (١٨٢١م). لمزيد من الإطلاع أنظر: بالمر، الآن، موسوعة التاريخ الحديث ترجمة سوسن فيصل السكر ويوسف محمد أمين [بغداد، ١٩٩٢] ج٢، ص١٢٨.

(٢) الجبري، عبدالمتعال محمد، الإستشراق وجه للإستعمار الفكري [مكتبة وهبي القاهرة، ١٩٩٥] ص١٨٢. انظر كذلك: اركون، محمد وآخرون، الإستشراق بين دعاته ومعارضيه ترجمة هاشم صالح [ط١، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤] ص٣٣٠.

مصر "مستعمرة مثالية" لخصوبة أرضها وصلاح مناخها لإقامة المستعمرين الفرنسيين[١].

ويردفه سافاري (Savary)، المستشرق المعروف برسائله المشهورة عام (١٧٨٦م) عن مصر، والتي تضمنت وصفاً شاملاً لمصر شعباً وأرضاً. وبعد عام ظهرت كتابات فولني (Volney) حول رحلته إلى سوريا ومصر[٢]، والتي تضمنت دراسة لجغرافية هذه البلاد وشؤونها السياسية والاقتصادية التي تعج بالفوضى والإضطراب.

كل ذلك شكل مقدمات للحملة البحرية العسكرية التي انطلقت في ١٩ أيار (١٧٩٨م)، من مرفأ طولون، لتنزل في الإسكندرية في الأول من تموز[٣].

لقد تجاوز تعداد البعثة العلمية في هذه الحملة المائة وخمسة وسبعين عضواً[٤] من شتى الإختصاصات في ميادين العلم والمعرفة الإنسانية، من علماء الرياضيات والفلك والهندسة المدنية إلى علماء الطبيعيات، والإقتصاد والفنون الجميلة والآثار إلى عمال المطابع المهرة والمترجمين.

وأنشأ بونابرت "المجمع العلمي المصري" في ٢٢ آب (١٧٩٨م)، وجعل مونج• (Monje) كبير علماء الرياضيات رئيساً عليه، وجعل من نفسه نائباً للرئيس[٥]، كما أسس مطبعة[٦] عربية لطبع بياناته إلى الشعب المصري، وكذلك إنتاج العلماء الباحثين من دراساتهم لطبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ونظمها وآثارها. وكان من نتاجهم الرئيسي كتاب بعنوان "وصف مصر" وقد طبع في ثلاثة وعشرين مجلداً، يبلغ حجم الصفحة الواحدة متراً مربعاً، وتعرض لتاريخ مصر منذ القدم حتى الحملة الفرنسية، وإلى وصف تاريخ مصر الطبيعي ودراسة ثرواتها ومحاصيلها النباتية والحيوانية وتقاليد سكانها[٧].

وكما نرى فإن هذا الكتاب يشتمل على معلومات مفصلة وفيرة تصب في خانة السياسة الإستعمارية الفرنسية تجاه مصر؟ وإلا ما هي الجدوى من حشد الجيوش

---

(١) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص٤٥.

(٢) فريمو، جاك، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ص٣٥.

(٣) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية، ص٨٦.

(٤) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص٩٦.

• بلور مشروع مدرسة التقنيات العليا (بوليتكنيك).

(٥) الحاج، الظاهرة الإستشارقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص٩٧.

(٦) فريمو، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ص٤٤.

(٧) شكري، الحملة الفرنسية على مصر، ص٧.

والأساطيل لغزو مصر - فهذا عمل يذكرنا بالحملات الصليبية الفرنسية للإستيلاء على مصر لكونها تمثل بعداً إستراتيجياً مع الممالك الصليبية في بلاد الشام حينذاك.

ويعد هذا الكتاب أحد أهم إنجازات الحملة الفرنسية على مصر في مجال الدراسات الإستشراقية، فضلاً عن حل رموز الكتابة الهيروغليفية عن حجر رشيد، من قبل عالم الآثار الفرنسي شامبليون (Champillion) [١].

وفي الوقت نفسه كانت الحملة مجالاً حيوياً ومهماً للإتصال المباشر والمنظم مع الشرق، والكشف عن طريق المعاينة والمشاهدة عن أحواله السياسية والإقتصادية والاجتماعية والتي انطوت دراساتها على قدر كبير من المعلومات. ولعل من أهم نتائج الحملة ظهور العديد من العلماء والباحثين الذين تخصصوا في الدراسات الإستشراقية، وكان من نتائج أعمالهم ما يمكن أن نطلق عليه "مرحلة الإستشراق العلمية"[٢].

وفي عام (١٧٩٩م) ظهر مصطلح الإستشراق[٣] Orientalisme في مفردات الفكر الفرنسي المتوجه لدراسة الحضارة العربية الإسلامية.

ومن المحطات المهمة في مسيرة الإستشراق الفرنسي عام (١٨٢٣م) تاريخ تأسيس الجمعية الآسيوية، التي أصدرت المجلة الآسيوية، وزخرت بالبحوث والدراسات العربية والإسلامية، وانضوى تحت لوائها العديد من العلماء والمعنيين في آسيا والشرق الأوسط والشرق الأدنى[٤]. وبعد ذلك ظهر المصطلح في قاموس الأكاديمية الفرنسية Dictionnaire de l'Academie Francaise في باريس عام (١٨٣٨م).

توسعت دائرة الإستشراق الفرنسي بعد احتلال الجزائر عام (١٨٣٠م)، ومن بعدها تونس ومراكش، وهذا أمر دفع بشكل مذهل إلى ضرورة إنعاش الاهتمام باللغة العربية وتاريخ ودين وحضارة العرب والمسلمين.

وبولادة القرن العشرين، نشأت المدرسة العلمية التطبيقية للدراسات العليا، لاسيما الدراسات الإستشراقية التي جددت موادها وتنوعت وأصبحت أكثر تخصصاً، وعنت بقضايا التاريخ الإقتصادي والتاريخ الاجتماعي والتاريخ العمراني، وأصول اللغة وفقه اللغة وصولاً إلى القضايا الدينية والفنون والآثار[٥].

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٥٠

(٢) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص١٠٠.

(٣) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٨.

(٤) منتران، روبير، الإستشراق الفرنسي، أصوله، تطوره، آفاقه، ص٣٤.

(٥) منتران روبير، الإستشراق الفرنسي، أصول، تطوره، آفاقه، ص٣٥. انظر كذلك: فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٢٦٨-٢٧٣.

المبحث الثاني

دوافع الإستشراق الفرنسي – نماذج من المستشرقين والمؤسسات الإستشراقية الفرنسية

كان الإستشراق الفرنسي شأنه شأن الإستشراق الأوروبي، محكوماً بدوافع عدة مع وجود اختلاف ربما في الأولويات، وهو أمر يتماشى مع التطورات السياسية بشكل عام. وكان هناك تطور في مناهج البحث في أوروبا عامة وفرنسا منذ عصر النهضة الأوروبية عندما اندفع عدد من العلماء للتعرف إلى شعوب وحضارات تقع خارج محور الحضارة الغربية وبعيداً عن الشعوب الأوروبية.

وهناك دون شك دوافع من طرف خفي أو ظاهر لهذا الإندفاع العلمي، وما الإشارة السابقة عن كتاب "وصف مصر" إلا دليل ساطع على هذا التصور.

ومع ذلك تعددت الأهداف الإستشراقية الفرنسية تبعاً للظروف التاريخية التي مرت بها فرنسا داخلياً وخارجياً، على الأصعدة الدينية والسياسية والإقتصادية والثقافية.

لذا نجد النتاجات الإستشراقية مصبوغة بالعداء الديني في المرحلة التي سيطرت فيها الكنيسة على مقدرات الأمور، ليتخذ هذا العداء صوراً أقل فجاجة بعد تحرر العقل الفرنسي من هذه الهيمنة، حيث تظهر تأثيرات سيادة النزعة العقلية على الدراسات الإستشراقية، دون أن تستبعد العوامل السياسية والإقتصادية التي كانت حاضرة بقوة في مختلف منحنيات العلاقة الفرنسية مع الشرق. ويمكننا أن نوجز الدوافع الفرنسية في ركوب موجة الإستشراق بما يأتي:

أولاً: الدافع العلمي

يُفترض أن يكون هذا الدافع الأول لطلب علوم الشرق من حيث انه "المتعة الذهنية، وسعة الفكر الثقافية في دراسة أقوام غابرة وشعوب حاضرة، والإطلاع على لغاتها وأديانها وعاداتها وحضارتها بصورة عامة. وهذا بدوره يلقي ضوءاً على الحضارات الحديثة التي تحدرت وتطورت من تلك الحضارات"[1]، كما يشكل أحد المداخل المهمة لما شهدته فرنسا بشكل خاص من نهضة فكرية إبان عصر النهضة الأوروبية، وبالأخص الموقف من الحضارات غير العربية، واتباع أسس علمية في منهج الكتابة التاريخية.

---

(١) الرحيم، أحمد حسن (المستشرق الفرنسي، أرنست رينان ونظرته إلى اللغة والفلسفة العربية) المنشور في مجلة الإستشراق، العدد٢، ص٣٩.

وبغض النظر عن الاختلاف حول دور العرب والمسلمين الحضاري من حيث هم "مجرد نقلة لعلوم اليونان والفرس والهند"[١]، أم أنهم مبدعو حضارة، وباعتراف المصادر الأجنبية كافة قبل العربية، كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية وتونس منارات ثقافية[٢] اهتدى إليها طلبة العلم من كل الأجناس.

ومما لا شك فيه أن الاحتكاك المبكر للفرنسيين بالعرب والمسلمين فتح أعينهم على المنجزات العلمية والحضارية خصوصاً في الأندلس، فكانت أولا وفود الطلبة لتلقي العلم[٣]، تلتها الترجمات الأولى لعلوم الكيمياء والطب والرياضيات والفلك والفلسفة، مروراً بالدراسات الإسلامية واللغوية وانتهاءً بفتح معاهد وكراسي اللغات الشرقية، وذلك لاستيعاب ما تضمنته المخطوطات والمجلدات التي نقلت بالآلاف إلى المكتبات الفرنسية كما سبق ذكره.

ثانياً: الدافع الديني

هو محور الأهداف والغايات الإستشراقية الفرنسية منذ البدايات الأولى المتمثلة بجربرت دي أورلياك وبطرس المحترم وربما حتى العصر الحديث، وأكثر الأهداف التي مرت بأدوار مختلفة. فتارة نراه غاية يستخدم الإستشراق وسيلة، عندما تُرجم القرآن لأول مرة بغية الإطلاع على ما لدى المسلمين لصدهم أو الهجوم عليهم[٤]، وطوراً نراه وسيلة عندما أصبح مطية للأطماع السياسية والإقتصادية (الحروب الصليبية - الحملات التبشيرية كمقدمات للإستعمار) التي أسهمت في الإستيلاء على بلاد العرب والمسلمين.

وشكل الرهبان أحد المصادر المهمة التي رفدت الحكومات الفرنسية المتعاقبة بالمعلومات، عن أوضاع الشرق وأحواله[٥]، كما تعدى الإستشراف الفرنسي الحدود إلى الأقطار العربية والإسلامية وخاصة في الجزائر وتونس ومصر وسوريا ولبنان، حيث انتشرت المؤسسات الإستشراقية تحت أغطية الإرساليات التبشيرية، التي غالباً ما كونت مؤسسات تعليمية مرتبطة بها[٦].

وإن الإستشراق عموماً، والفرنسي منه، اتخذ أيضاً طابع الدفاع عن المسيحية في مواجهة إنتشار الإسلام في فرنسا وأوروبا، وذلك من خلال توجهين أساسيين،

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٢) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٥١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١٨.

(٤) سبقت الإشارة إلى بطرس المحترم وترجمته للقرآن الكريم.

(٥) الجليند، محمد السيد، الإستشراق والتبشير في قراءة تاريخية موجزة، [زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٦٦] ص٨٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٢-٩٧.

الأول ومثل مرحلة البدايات الأولى للإحتكاك بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والمسيحية، عبر محاولات إقناع المسيحيين بأن هذا الدين الجديد هو مجرد هرطقة[١]، وأن العرب والمسلمين أقوام دونية[٢] همجية وثنية، حيث برزت التفسيرات الحاقدة والتعبيرات المهينة بحق الإسلام ونبيّه، المدفوعة ربما بدافع تبشيري، أو كما يقول رودنسون[٣]، الخوف من إنتشار الدين الإسلامي على أثر وصول المسلمين إلى أوروبا، وهو توجه يوضح طبيعة الجهود الأولى الرامية إلى تحصين الإنسان الأوروبي إزاء إغراء مبادئ الإسلام وسير رجالاته.

أما التوجه الثاني الذي تم التركيز عليه فيدور على مدى تأثير النصرانية على الدين الإسلامي، ولما أخذ اليهود الدور الأساسي في حركة الاستعراب والإستشراق بدأت الموازنة الجديدة في إظهار الأثر اليهودي التوراتي في الإسلام.

الجدير بالذكر اعتناء علماء الكنيسة باللغة العربية، بوصفها لغة المسلمين، وأداة حقيقية لفهم الإسلام من أجل الرّد عليه ودحض حجته، على أساس التراجم اللاتينية للقرآن، والعمل على هداية المسلمين بتراجم عربية للأناجيل وغيرها من الكتب[٤].

وهناك العديد من الأسماء التي بلغت الشهرة في الإستشراق الفرنسي وتنتمي إلى المؤسسات الدينية المختلفة كرهبان وقسس وباباوات، فضلاً عن جربرت وبطرس اللذين سبق ذكرهما، ونذكر أيضاً رينودو ولامانس وجوتيه وبارجيس ورينان وبورغارد وكولنجت وماريا شنايدر[٥].

واحتلت فرنسا مركزاً مهيمناً منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في بلاد الشام على صعيد التغلغل "الثقافي والإنساني" حيث كان لديها أكثر من ١٠٠ مؤسسة خدمات إجتماعية وحوالي ٢٢٠ مؤسسة تعليمية بحدود عام[٦] (١٩١٣م) وأبرز مثال جامعة القديس يوسف في بيروت التي ارتبطت بجامعة ليون وتأسست من قبل الرابطة الليونية لتطوير التعليم العالي والتقني في الخارج عام (١٩١٣م) حيث أنيطت

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٥.

(٢) العظم، صادق حلال، ذهنية التحريم [ط١، رياض الريس، لندن، ١٩٩٢] ص٢٠.

(٣) تراث الإسلام، العدد ٨، ص٣٤.

(٤) المسلاتي، مصطفى نصر، الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، [ط١، دار اقرأ، بنغازي، ١٩٩٠] ص٤٥٤.

(٥) جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الفكري، ص١٠٨-١٠٩.

(٦) السلاتي، الإستشراق السياسي، ص٢٢٠.

الإدارة فيها بالآباء اليسوعيين بينما أشرفت جامعة ليون على التعليم ومنح الشهادات[1].

(١) جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الجديد، ص٧٨.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي

شهدت المدن المطلّة على البحر المتوسط علاقات تجارية قوية منذ التاريخ القديم، حيث أنشأت المرافئ التي تستقبل السفن المحملة بالبضائع[١]، ومما لا شك فيه أن الاهتمام ببيع المواد المصنعة في المعامل الأوروبية يؤدي للبحث عن السوق لتصريفها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحاجة للمواد الأولية.

لقد سبق أن ذكرنا كيف أثمرت مراحل الاحتكاك المختلفة بين الشرق العربي المسلم والغرب الأوروبي المسيحي، إن في أوقات الحرب أوالسلم، عن دراسات وبحوث وكتابات تصف ما يتوفر في الشرق من ثروات زراعية ومعدنية وحيوانية وغيرها[٢]، وعليه مثّل الاقتصاد جانباً مهماً من الدوافع الإستعمارية الفرنسية لأجزاء من الشرق.

ولعب النفط دوراً أساسياً في صياغة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين فرنسا والدول المنتجة له. كل ذلك كان دافعاً لتعلّم اللغات الشرقية ودراسة أحوال الشرق بكل جوانبه المختلفة لتسهل السيطرة عليه والوصول إلى ثرواته، كما أصبحت هذه الدراسات مهمة لبعض ممن لم يستطع المنافسة في مجالات العلوم الأخرى فتحول إلى الإستشراق توخياً للكسب والإرتزاق[٣].

رابعاً: الدافع السياسي

من المعروف تاريخياً أن ثمة تلازماً مباشراً بين السياسة والإقتصاد، فالدوافع الإقتصادية تسهم إلى حد بعيد جداً في تحديد الاستراتيجيات السياسية، ولعب الإستشراق والمستشرقون دوراً مهماً من خلال إعداد البحوث والدراسات وتقديم المشورة لوزارات الخارجية والمستعمرات والحربية (الفرنسية).

كما عمل العديد منهم في وظائف عالية ومهمة لدى حكوماتهم، قناصل وسفراء ومترجمين وتمحورت نشاطاتهم باتجاه[٤]:

١- البحث عن مواطن القوة والضعف في الأقطار المستهدفة.

---

(١) اتصلت فرنسا بلبنان تجارياً عبر مرفأ مرسيليا. وأقامت لها قنصلية انتدبت لها أبا نوفل الخازن. كما أنشأت شركة ملاحة شرقية- الفت البعثات لإستخراج كنوز الشرق. انظر: جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الجديد، ص٧٦.

(٢) سبقت الإشارة إلى كتاب (وصف مصر) الذي ألفته البعثة العلمية المرافقة لحملة نابليون.

(٣) جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص٢٢.

(٤) المسلاني، مصطفى نصر، الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص٢٦٥.

٢- زرع بذور الفتن بين شعوبها وتشكيكها بتاريخها وإقناعها بتخلفها عن المدنية الفرنسية.
٣- السعي إلى معرفة أسرار البلدان واتجاهات الرأي العام فيها ومحاولة التأثير في هذه الاتجاهات.

هذه الصورة السريعة من تتبع دوافع الإستشراق الفرنسي والتي وجدناها لا تختلف كثيراً في الأولويات أو الثوابت عن غيرها من دوافع الإستشراق الأوروبي أو الأميركي أو الروسي، ولن تكون إلا مقدمة للتعرف على أهم المستشرقين الذين مثلوا هذه الدوافع.

نماذج من المستشرقين الفرنسيين:

غليوم بوستل Guillaume Postel (١٥١٠-١٨٥١م) [١]

من أبرز المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين الذي مثل عصر النهضة خير تمثيل[٢]، تعلم العديد من اللغات الشرقية والغربية، وأجاد البعض منها. كان معجباً باللغة العربية ويعتبرها لغة عالمية في حينها، واجادتها تفيد، حسب رأيه، في العلاقات مع الأمم الإسلامية جميعها، والإطلاع على المؤلفات العديدة والمفيدة التي كتبت بالعربية، كما أنه يستطيع، على حد علمه، أن يفند عقائد أعداء الدين المسيحي وأن يكون على اتصال بالأرض كلها عن طريق معرفة لغة واحدة[٣].

درّس في الكوليج دو فرانس، وكذلك لفترة قصيرة في جامعة فيينا. كانت له أكثر من زيارة إلى الشرق حيث جمع العديد من المخطوطات لصالح فرانسوا الأول ولصالحه.

من نتاجاته:

١- كتاب "حروف هجاء اثنتي عشرة لغة مختلفة: مدخل إلى قراءتها بأسهل طريق" سنة (١٥٣٨م). وهذه اللغات هي العبرية والكلدانية والسريانية والسامرية والعربية والحبشية واليونانية والجيورجية والصربية والألبانية والأرفليتة واللاتينية[٤].
٢- "نحواً عربياً" Arabic Gramatica سنة (١٥٣٩م).

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٤٧.
(٢) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٣.
(٣) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٤٩.
(٤) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٣٥.

٣- "جمهورية الترك" سنة (١٥٣٩م) أو سنة (١٥٤٠م) وفيه يقدم صورة مثالية للمجتمع العثماني.

ومن نتاجاته أيضاً: توافق القرآن والإنجيل (١٥٤٣م)، فتوح النساء (١٥٥٣م)، وصف دستور القدس (١٥٥٣م)، عادات وشريعة المسلمين (بواتيه ١٥٦٠م)، وصف الناصرة (نشرت وصفه إنجيلا كودانزي، ميلانو، ١٩٥٢م) [١].

جوزيف سكاليجر Joseph Scaliger (١٥٤٠-١٦٠٩م)

يعتبر سكاليجر من أبرز المستشرقين المشهورين الذين أتقنوا العربية ولغات مشرقية أخرى في فرنسا، وهو من المستشرقين القلائل الذين استخدموا المصادر اليونانية واللاتينية والعربية، بروح علمية. تعقّب بولع المعضلات التاريخية لتاريخ أفريقيا المبكرة وألمّ بوثائق عصره، تلميذ بوستل، عاش سنة (١٥٦٢م) بصحبته ليتعلم منه العربية. ويبدو أنه بزّه معرفة وسعة إطلاع بالعربية والدراسات الشرقية عموماً. انصب همه الأكبر على الحقيقة التاريخية، بعكس أستاذه الذي وضع معرفته اللغوية في خدمة الديانة المسيحية. أهم عمل له ما يطلق عليه اسم "ثمرة النهم إلى المعرفة"[٢].

الكونت هنري دو بولنفييه Le Comte Henrie de Boulainvillers (١٦٥٨-١٧٢٢م).

ولد في أسرة نبيلة، منها المحاربون والدبلوماسيون، عاش عيشة بسيطة، اذكب على دراسة النظم القديمة في فرنسا وتاريخ الأسر الفرنسية الكبرى، وكان مولعاً بالسحر والتنجيم والتنبؤ بالغيب. وجد في مكتبته حوالي ألفي كتاب. وهو من أوائل المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ السيرة النبوية الشريفة، حيث كتب "حياة محمد". نُشر بعد وفاته بسنين عدة، علماً ان كثيراً من الكتب التي ألّفها لم ينشرها[٣]. ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية. اعتمد في تأليف كتابه على "مراتشي" و"بوكوك" لأنه لم يكن يعرف العربية، وأبدى فيه إعجاباً شديداً بالنبي محمد وبالإسلام ومبادئه، وأكد على أن ما جاء به من مبادئ دينية كان صحيحاً[٤].

البارون سلفستر دو ساسي Silvester de Sacy (١٧٥٨-١٨٣٨م)

ولد في باريس، درس اللغات العربية والعبرية والفارسية التركية. وفي سنة (١٧٧٨م) عيّنه الملك عضواً في جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية في مكتبة

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٧٢.

(٢) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٥٧. انظر كذلك: رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٣.

(٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٤٢.

(٤) ناجي، عبدالجبار، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٩٢- ٩٣.

باريس الوطنية[1]، فوضع بحثين في تاريخ قدماء العرب وأصل آدابهم وحقق أربعة كتب عربية عن فتح اليمن وعلّق عليها[2]. كان له تأثير قوي على مسار الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا[3]، حيث كانت باريس قبلة يؤمها الطلاب الأوروبيون لدراسة اللغات الشرقية، وبفضله تحرر مفهوم الإستشراق من قيد اللاهوت.

عين أستاذاً للعربية (١٧٩٦م) في مدرسة اللغات الشرقية، وأستاذاً للفارسية في الكوليج دو فرانس عام (١٨٠٦م). استرد عضويته في أكاديمة النقوش والآداب عام (١٨٠٣م)، انتخب عضواً في الجمعية التشريعية عام (١٨٠٨م). منحه نابليون لقب بارون عام (١٨١٤م). ومنح لقب Pair de France عام (١٨٢٢م) وهو يعطى لمن هم أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي حينذاك. ترأس الجمعية الآسيوية لدى تأسيسها والتي أصدرت المجلة الآسيوية، ولا تزال حتى اليوم من أهم المجلات الإستشراقية. صار مديراً للكوليج دو فرانس عام (١٨٢٣م) ومديراً للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية عام (١٨٢٤م). منح العديد من الأوسمة والألقاب واستمر في نشاطه ومهامه حتى توفي في ٢١ شباط (١٨٣٨م). ورغم مسؤولياته ومناصبه، كان لديه الوقت الكافي لينجز العديد من البحوث والدراسات أهمها:

١- النحو العربي (١٨١٠م) الطبعة الأولى، (١٨٣١م) الطبعة الثانية وكانت منقحة وفيها إضافات كثيرة.
٢- عرض ديانة الدروز (١٨٣١) في مجلدين.
٣- مقامات الحريري حققها وطبعها على حسابه الخاص (١٨١٢م).
٤- ترجمة وتعليق على كتاب "الإفادة والإعتبار بما في مصر من الآثار" (١٨١٠م).
٥- كليلة ودمنة تحقيق (١٨١٦م).
٦- (بند نامه) تحقيق وترجمة (١٨١٩م).
٧- ترجمة فصول من كتاب "روضة الصفاء" لصاحبه مير خاوند بن برهان الدين خاوند شاه (١٨٣٧م).

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٤٥، وكذلك: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٣٤.
(٢) العتيقي، المستشرقون، ج٢، ص١٧٩.
(٣) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٥.

تخرج على يديه العديد من المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين البارزين[1].

ارمان كوسن دو برسفال Arman Cossain de Persval (١٧٩٥-١٨٧١م)

من أوائل المستشرقين الذين تولوا كرسي العربية في مدرسة اللغات الشرقية•، بعد أن أقام مدة في البلاد العربية (١٨١٧-١٨٢٠م)، ثم تولى كرسي العربية في الكوليج دو فرانس (١٨٣٣م) [2]، وانتخب عضواً في أكاديمية النقوش والآداب (١٨٤٩م)[3]. من مؤلفاته: نحو اللغة العربية العامية (١٨٢٤م)، حقق المعجم العربي الفرنسي لـ الياس بقطر (١٨٢٨م)، "تعليقة على الشعراء العرب الثلاثة: الاخطل، جرير، الفرزدق" (١٨٣٤م)، باكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات، قسم العرب إلى ثلاثة أقسام: قبل الإسلام، ثم عصر الذبي، ثم انضواء القبائل تحت راية الإسلام[4]. وكان له من أبيه جان جاك كوسن دو برسفال (١٧٥٩-١٨٣٥م) ذخر وشهرة حيث صار أبوه أستاذاً في الكوليج دو فرانس وحفيظاً على المخطوطات الشرقية في المكتبة الوطنية، وعضواً في معهد فرنسا، ومن أهم أعماله: "تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين" (١٨٠٢م). وهو منتزع من "نهاية الإرب" للنويري، وتكملة ألف ليلة وليلة (١٨٠٦م)، "والجداول الفلكية" لإبن يونس (١٨٠٦م) [5]

---

(١) بدوي، عبدالرحمن، المستشرقون ص٣٣٤، انظر كذلك: العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص١٧٩. وكذلك: فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٤٥. كذلك الرمادي، جمال الدين، من الشرق والغرب، علماء أجانب في خدمة الثقافة العربية [الدار القومية للطباعة، بلا] ص٢٣.

• التي أسسها دي ساسي عام (١٧٩٥م).

(٢) بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٤٨٨.

(٣) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٩٣.

(٤) الرمادي، علماء في خدمة الثقافة العربية، ص٢٢.

(٥) بدوي، موسوعة المستشرقين، ٤٨٨.

لويس ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٣-١٩٦٢م)

ولد في إحدى ضواحي باريس، والده كان نحاتاً وفناناً، ما كان له أثر كبير في تنشئته بعقلية فنية، الامر الذي ساهم في توجهه إلى العناية بالآثار الإسلامية. أول تعاطي إستشراقي له كان من خلال اشتراكه في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر (١٩٠٥م). تجول في أغلب أقطار الوطن العربي، حيث تنقل من مراكش والجزائر إلى مصر وبغداد وسوريا وفلسطين ولبنان، درس خلالها وقدم محاضرات ونقب عن آثار (اكتشف قصر الأخيضر في العراق) وألقى العديد من المحاضرات في الجامعة المصرية.

تنقل بين مناصب ومسؤوليات عديدة. فمن معيد في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (١٩١٩م) إلى مدير الدراسات في المدرسة العملية العليا، إلى تحرير مجلة العالم الإسلامي ومجلة الدراسات الإسلامية بعدها. كما انتخب عضواً في العديد من المجامع العلمية منها الجمعية الآسيوية، والمجمع اللغوي في مصر والمجمع العلمي العربي في دمشق[١]. حصل على الدكتوراه برسالة عن آلام الحلاج من السوربون (١٩٢٢م). آثاره تربو على ٦٥٠ بين مصنف وتحقيق ومترجم وبين مقال ومحاضرة وتقرير ونقد ومقدمة وسيرة كان للحلّاج نصيب وافر فيها[٢].

هنري ماسييه Henrie Masse (١٨٨٦-١٩٦٩م)

حصل على دبلوم في العربية والفارسية والتركية من المدرسة الوطنية للغات الشرقية. التحق (باحثاً) بالمعهد الفرنسي للآثار في مصر (١٩١١م)، حصل على الدكتوراه (١٩١٩م) عن رسالته الموسومة "بحث في سعدي الشاعر". درّس في كلية آداب الجزائر أستاذاً للغة العربية والفارسية، وألقى محاضرات عن علم الاجتماع الإسلامي، ثم استاذاً للفارسية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية ثم مديراً للمدرسة إلى أن أحيل إلى التقاعد عام (١٩٥٨م). توزع إنتاجه بين الدراسات العربية والدراسات الفارسية، لكنه برز في ميدان الأدب الفارسي حيث ألّف وترجم[٣].

هنري لاؤوست Henrie Laoust (١٩٠٥-١٩٨٣م)

درس العربية في مدرسة اللغات الشرقية والسوربون. أمضى عاماً ملحقاً في المعهد الفرنسي في دمشق ثم عين في المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة (١٩٣١م). وبعد أن حصل على الدكتوراه برسالتين، الأولى الرئيسية "بحث في آراء ابن تيمية

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٢٩.

(٢) الرمادي، من الشرق والغرب، علماء أجانب في خدمة الثقافة العربية، ص١٨.

(٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٣٦.

الاجتماعية والسياسية"، والرسالة الفرعية "إسهام في دراسة المناهج الشرعية عند ابن تيمية"[١]. عين مديراً للمعهد الفرنسي في دمشق، ثم أستاذاً لكرسي اللغة والحضارة العربية في آداب جامعة ليون – وخلف ما سينيون في الكوليج دو فرانس كأستاذ لعلم الاجتماع الإسلامي، ثم خلفه في رئاسة تحرير مجلة الدراسات الإسلامية. أولى مذهب ابن حنبل مركزاً رفيعاً في كتاباته، إلى جانب كتابه عن "الانشقاقات في الإسلام" وآخر بعنوان "السياسة عند الغزالي"[٢].

المؤسسات الإستشراقية الفرنسية

مما لا شك فيه أن يكون للحركة الإستشراقية الفرنسية - التي رأينا سبيل نشأتها وتطورها، مرتكزات تنطلق منها وتوجهها بتخطيط علمي وتنظمها، بما يجعل مردودها أكبر وفائدتها أعم، ونعني بذلك مجموع المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بالشأن الإستشراقي الفرنسي ومنها كراسي اللغات والدراسات العربية والإسلامية في الجامعات والمدارس والمعاهد مروراً بالمكتبات وصولاً إلى النشريات والدوريات.

أ. الجامعات الفرنسية التي تضم أقسام الدراسات الشرقية وهي:

١. جامعة السوربون وفيها معهد اللغات الشرقية الحيّة.
٢. جامعة ليون الثانية وتختص بدراسة المدنية الإسلامية وتاريخ سوريا.
٣. جامعة ستراسبورغ وتركز على دراسات اللغة والأدب والحضارة الإسلامية.
٤. جامعة أكسان بروفانس وتركز على الأدب العربي المعاصر.
٥. جامعة نانسي المتخصصة في دراسة الألسنية الحديثة.
٦. جامعة بواتييه المتخصصة بالحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى.
٧. جامعة بوردو المتخصصة باللغة والأدب والحضارة.
٨. الكلية الفرنسية في باريس وهي متخصصة بالآداب العربية والتاريخ الإسلامي[٣].

ب- المكتبات

١. مكتبة باريس الوطنية• (١٦٥٤م) وتحتوي على نحو سبعة آلاف مخطوط عربي. أسهم في إغنائها الحكومات الفرنسية المتعاقبة منذ نشأتها وأشخاص

---

(١) المصدر نفسه، ص٥١٠.
(٢) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣١٩.
(٣) مناهج المستشرقين، كتاب منهجي، جامعة بغداد، كلية الشريعة، المرحلة الرابعة، ص١٣٠.

تبرعوا بمكتباتهم الخاصة، ومخطوطات عربية، وكذلك مخطوطات مكتبات الأديار والكنائس وما أرسله نابليون خلال حملته من مصر. كما تضم العديد من الفهارس نظراً لما تحتويه من مخطوطات وهي تقيم المعارض لأصناف المخطوطات في المناسبات العلمية.

٢. مكتبات الجامعات والمعاهد، ومنها مكتبة جامعة ستراسبورغ ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، ومكتبة الجمعية الآسيوية في باريس[١].

• ارسل الملك لويس الرابع عشر عام (١٦١٧م) رسالة إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود مبعوثيه بأوامر إلى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية، انظر: عبدالمتعال، الإستشراق وجه الإستعمار الجديد، ص٢٣.

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٥٥.

٣. ثمة العديد من المكتبات الخاصة بأشخاص يعنون بالثقافة والإستشراق تحتوي على مجلدات ومخطوطات شرقية، ومنها مكتبات بعض العرب المقيمين في فرنسا[١].

ج- المجلات

كان هناك العديد منها وهي تعتني في مجموعها بمختلف العلوم والآداب والدراسات الشرقية العربية والإسلامية، ومنها ما يصدر في فرنسا ومنها ما يصدر في الشرق وباللغتين الفرنسية والعربية، نذكر منها على سبيل المثال:

- صحيفة العلماء Le Journal des Savants, Paris (١٦٦٥م) و هي تصدر عن جمعية العلماء الفرنسية في باريس.
- المجلة الآسيوية Journal Asiatique, Paris (١٨٢٢م) وتصدرها الجمعية الآسيوية الفرنسية في باريس.
- المجلة الأفريقية Revue, Africain, Alger (١٨٥٦م) تصدرها الجمعية التاريخية في الجزائر.
- مجلة الدراسات الإسلامية Revue des Etudes Islamiques, Paris (١٩٢٧م)

د. المطابع

حذت فرنسا حذو إيطاليا في تأسيس المطابع الشرقية، وأفادت من مطبعة دي بريف التي نقلها من روما إلى باريس. وبعد وفاته اشتراها رجال الدين [٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٢) العتيقي، المستشرقون،ج١، ص١٦٠-١٦١.

الخلاصة

يستمد الإستشراق عموماً، والفرنسي خصوصاً، فلسفته من السمات السائدة للأفكار الدينية والقومية في الغرب عن الشعوب الإسلامية، بحيث اتخذت شكل العقيدة العامة الجماعية التي صيغت على أساس غير موضوعي، إنعكاساً للأفكار التعصبية في تصورها للآخر(١).

انطلقت نظرة الذات (الفرنسية) إلى الآخر أو الغير (العربي والإسلامي)، من اعتبار الذات نموذجاً يقاس عليه الآخر.

ولما كانت الدراسات الإستشراقية الفرنسية محكومة بدوافع وأغراض الكنيسة والحكام والمصالح التي أسهمت في بلورتها، فقد تدحت النظرة الحضارية لصالح طغيان النظرة العنصرية المادية التي تجلت بصورها السياسية والإقتصادية الدينية وحتى الثقافية العلمية، في عملية إسقاط لأوهام الذات (الفرنسية) على الشرق العربي الإسلامي وتوجيه المعرفة لخدمة القوة(٢)، لتنصّب نفسها قاضياً يحكم بإبادة الذاكرة التاريخية للآخر(٣)، والتعبير بالنيابة عنه، ويبدو ذلك واضحاً عندما يستتر الغرب بشعارات براقة (عبء الرجل الأبيض في تحضر الآخرين) كمبرر ايديولوجي وحضاري للسيطرة والاستعمار(٤)، ليرسم صورة وهمية ومشوهة ترسخ في الأذهان حين يجري الحديث عن الشرق الإسلامي.

وبذلك تعكس دراسات المستشرقين وأدب الرحلات ولوحات الفنانين هذه الصورة في أذهان الجميع إذ لم يستطع أحد ممن كتبوا في السيرة النبوية والتراث العربي الإسلامي تجاوز رؤية محيطه الديني والثقافي والتحرر من نظرته السلبية المسبقة، إلا من أسلم منهم شاذاً عن القاعدة، بتفاعله مع المعطيات الروحية والثقافية للتراث العربي الإسلامي.

"فالعرب المسلمون إبّان سيادتهم الحضارية، كانت تتحكم في رؤيتهم للآخرين قناعات وصور ذهنية مقولبة تلون - الحقيقة الموضوعية - باللون المنبثق عن هذه

---

(١) السيد ياسين، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، [دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣] ص١٠١.

(٢) درويش، أحمد، (الإستشراق الفرنسي والأدب العربي)، مجلة دراسات أدبية، مطابع الهيئة العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٢.

(٣) مقابلة مع المفكر العربي، الدكتور الياس فرح، بغداد، شباط ٢٠٠١.

(٤) قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد [دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٢] ص٦٠.

الصورة"[١]. لكن الجوهر والإختلاف الأساسي هما في زاوية النظر، أو بمعنى أدق وأوضح في الخلفية الحضارية المشبعة بروح الدين والرسالة الإسلامية السامية والنبيلة، في مقابل النظرة المادية المحملة بالمشاعر والمشحونة بالعواطف الشخصية التي يصعب تغييرها وتفنيدها بسهولة ويسر[٢] والتي تملك المعرفة بالأشياء قبل رؤيتها[٣]، فتسعى لإثبات هذه المعرفة، بغض النظر عن صحتها، من خلال ليّ عنق الحقيقة في أحيان كثيرة كما مر معنا في دراستنا.

في المقابل، حملت الحضارة العربية الإسلامية مشعل الهداية والتقدم. وشتان ما بين حضارة أفصح عطاؤها قيماً ومعاني سامية، وأخرى تدعيها وتزيفها سعياً للسيطرة والهيمنة على الحضارة الإنسانية. لقد كان الأجدر للإستشراق الفرنسي – الذي اتسعت وتنوعت دراساته لتشمل مناحي الحياة كافة، وإنجازات التراث العربي الإسلامي – لو اقتصرت مباحثه على التحقيق والعلم النقي الصافي – حيث أنجز عملاً جليلاً لا يمكن إنكاره – بعيداً عن التمثيل بالتراث العربي الإسلامي والطعن في أهم مقوماته، ما يضع جهوده في مصاف النزاهة وينزلها في موقع متميز ليس في الإستشراق فحسب وإنما في سجل الحضارة الإنسانية.

---

(١) العظمة، عزيز، العرب البرابرة: المسلمون والحضارات الأخرى [دار الريس، بيروت، ١٩٩٨] ص٧٤.

(٢) طاش، عبدالقادر، الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، [شركة الدائرة للإعلام المحدودة، الرياض، ١٩٨٩] ص١٣.

(٣) السيد، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، ص٤١.

الفصل الثالث

السيرة النبوية في كتابات المستشرقين الفرنسيين

المبحث الأول: {كتابات المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بشأن السيرة النبوية}

المبحث الثاني: {"حياة محمد" كتاب لأميل درمنغم نموذجاً للإستشراق الفرنسي}

المبحث الأول

كتابات المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بشأن السيرة النبوية

يقدم لنا القرآن الكريم والحديث الشريف، والمؤلفات الخاصة بالسيرة النبوية الشريفة معلومات قيمة تسلط الضوء على أهمية سيرة سيد المرسلين (ﷺ) في الدراسات التاريخية والدينية، إذ أنها تمثل بداية مرحلة جديدة في التاريخ العربي الإسلامي، بداية مبنية على القيم والموروثات التي أسسها رسول الله (ﷺ) في سيرته الكريمة.

وإذا ما قارنا سيرة نبينا الكريم (ﷺ) والمعلومات المتوفرة عنها، بسير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، نجدها واضحة وبسيطة خالية إلى حد كبير من الدس والشوائب، لأنها مكتوبة من قبل علماء التاريخ وفق سلسلة الأسانيد المروية من كبار الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، على عكس ما حدث من تزويرات وإضافات في سير من سبق نبينا (ﷺ) من الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعاً.

فالقرآن الكريم يقدم آيات كريمات فيها تسلسل تاريخي وموضوعي عن الرسول (ﷺ) وسيرته قبل البعثة النبوية الشريفة وبعد ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾[1].

ونظراً لأهمية حياة الرسول (ﷺ) وسيرته وعلاقاته مع أصحابه وأسرته رضوان الله عليهم، ناهيك عن علاقته الأساسية بالله تعالى عن طريق الوحي، فقد صارت محط أنظار المستشرقين عامة والفرنسيين خاصة. ويمكننا تتبع النشاط الفكري للإستشراق الفرنسي زمنياً على النحو الآتي:

---

(١) سورة الضحى، آية من (١-٨).

المرحلة الأولى

يطلق المؤرخون الأوروبيون مصطلح العصور الوسطى على السنوات التي تفصل بين انهيار المدنية الرومانية وبين ما تراءى لهم من فجر مدنية العصر الحديث[١].

لقد سبق وتحدثنا في المباحث السابقة عن أوضاع أوروبا عموماً في تلك القرون، إذ كانت تعيش مرحلة من الجهل والتخلف ومحاربة العلم والعقل، في حين كان العرب والإسلام يشيدون منارات العلم والحضارة في مواقع متعددة، أقربها لأوروبا – الأندلس، التي شهدت في بداية القرن العاشر نشاطاً ملحوظاً لأفراد وبعثات تتلمذت على أيدي العرب والمسلمين، حيث عبرت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه (SIGRID HUNKE) عن ذلك الحال بقولها: "لم يكن هناك أحد ليمنح أوروبا ما قبل القرون الوسطى أي اهتمام ... وأما أن يكون العرب في جوار قريب لها، هذا الشعب الرائد لغيره من الشعوب حاملاً مشعلاً للثقافة"[٢].

وفي الوقت الذي انصب فيه اهتمام طلبة العلم على نتاجات الحضارة العربية الإسلامية، في مجالات العلوم كافة فضلاً عن اللغة العربية، كانت هناك المساعي الحثيثة للكنيسة المسيحية، وعلى رأسها قمة هرم المؤسسة الدينية البابوية بتأثيرها على الملوك والدول والأديرة والرهبان، الذين مثلوا الطبقة المتعلمة، والتي رأت ضرورة تعلم العربية والاطلاع على مضامين الدين الإسلامي، لرد دعوته ومنع انتشاره. وفي الوقت نفسه الذي سعت فيه تلك الطبقة إلى تأجيج نيران التعصب الديني، وسَوق أوروبا إلى الحروب الصليبية، راح رجال الدين يحشدون الناس لمحاربة الإسلام، والقضاء عليه ويرونه ديناً منافساً للنصرانية، وكان ذلك واحداً من الدوافع الأساسية لهذه الحروب.

وخير من عبر من المستشرقين الفرنسيين عن هذه المرحلة بطرس المبجل PIERRE LE VENERABLE (١٠٩٤-١١٥٦م) الذي توج جهوده بترجمة القرآن (١١٤٣م) عبر استخدامه لمترجمين كما ورد في المباحث السابقة، مع بعض نصوص، منها عن حياة الرسول (ﷺ). لم تنتشر هذه الترجمات إلا بعد أربعة قرون من ترجمتها[٣]. وملخص رأي بطرس عن الرسول (ﷺ) ودينه الجديد ما هو إلا

---

(١) العريي، السيد الباز، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، [مطبعة دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨] ج١، ص١.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص١٢.

(٣) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٧.

هرطقة مسيحية، وان المسلمين كفرة، ومحمد ليس بنبي وقد ساند قوى الشر فهو إما أداة للشيطان أو عميل له[١].

حفلت هذه المرحلة بالكتابات المليئة بالحقد والتعصب والأباطيل والخرافات والتشويه ضد النبي (ﷺ) والإسلام في فرنسا وأوروبا عموماً، وتركز الهجوم على شخص النبي (ﷺ) للتشكيك بنبوته، ومصدر القرآن، فلم يسلم حتى من أشعارهم واغنياتهم. وحتى اسمه جرى التشويش عليه وتشويهه بشكل متعمد وفاضح من خلال الخلط بين Mohamed (محمد) وMa hound (ما هوند) وتعني كلبي أي (ما ضمير المتكلم، وهوند = كلب) [٢]، حيث يتضح هنا تلاعب بظاهر اللفظ للإساءة لشخص الرسول[٣] (ﷺ).

ويرد في موسوعة "لاروس" الفرنسية (Larousse – Encyclopedia francaise) عرض لآراء الكتاب الذين سعوا للنيل من النبي (ﷺ) وعندما لم يجدوا ما يعيبونه به اتجهوا إلى الكذب والسباب "فقالوا في معنى محمد = ساحراً ممعناً في فساد الخلق، لص نياق، كاردينال لم ينجح في الوصول إلى البابوية فاخترع ديناً جديداً"[٤].

ونستنتج من هذا كله أن كتابات تلك المرحلة بخصوص السيرة النبوية والإسلام عامة، اتسمت بالعداء والتعصب وغلب عليها الطابع الأسطوري المرتكز إلى خيال خصب مجاف للحقيقة، وبعيد عن النهج العلمي، ويظهر فيها بوضوح تام افتقار هذه الدراسات إلى المصادر الرصينة العربية، إذ لم تكن معروفة لديهم، لذلك اضطر الكتّاب إلى تزييف الروايات والمعلومات•، وقد عبر عن ذلك المستشرق الفرنسي كارا دو فو (Carra De Vaux) (١٨٦٧ – ١٩٥٣م) حيث قال: "ظل محمد زمناً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه"[٥].

وجاء تطور تعلم اللغة العربية والاهتمام الواسع الذي حظي به في فرنسا، ليشكل علامة بارزة في تطور فهم المستشرقين الفرنسيين للسيرة النبوية والإسلام،

---

(١) الشرقاوي، محمدعبدالله، الإستشراق، دراسةت حليلية تقويميه، [مطبعة المدينة، القاهرة، ١٩٩٣] ص٦١.

(٢) ناجي، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٨٧.

(٣) أسد، الإسلام في مفترق الطرق، ص٥٨.

(٤) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١١.

• انظر: M. Watt: Muhammed; prophet and statesman, p.231

(٥) الفراج، عدنان علي (الإستشراق والسيرة النبوية)، المنشورة في مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، العدد ٣، ١٩٩٦، ص١٢٧.

لأن اللغة العربية أهم أدوات فهم الإسلام بشكل صحيح. ومن هذا المنطلق تعامل المستشرقون الفرنسيون مع الشرق العربي المسلم معبرين عن إدراك واع للعلاقة العضوية بين العروبة والإسلام حيث يقول المستشرق الفرنسي كولبي: "ليست العربية لغة النبي ولا لغة الوحي فقط بل هي لغة الوحدة العقلية للأمة جمعاء، وقد شكل العرب رأس الحربة والطليعة التي حملت تعاليم الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها"[١]. كما عبر عن ذلك التطور غليوم بوستل Guillaume Postel (١٥٠١-١٥٨١م) الذي كان من أعضاء أولى البعثات إلى الشرق، في أعقاب تحسن العلاقات الفرنسية العثمانية، حيث برع في اللغات الشرقية، ومنها العربية التي قال عنها في كتابه "القرآن والإنجيل" (١٥٤٣م) إنها "أفصح اللغات آداباً وهي لغة أمة على رأسها محمد وهو أفصح من نطق بها"[٢].

يعبّر بوستل عن رأيه بالرغم من تعصبه الديني المسيحي والقومي الفرنسي، حيث كان حلمه أن تقود فرنسا عملاً تبشيرياً لتنصير الكفرة الوثنيين والسيطرة على العالم باسم المسيحية، حيث يعتبر الفرنسيين شعب الله المختار[٣].

يشارك جول لابوم (١٥٠٥-١٥٧١م)، الملقب بفيلسوف الجيل، بوستل في إعجابه بشخصية محمد (ﷺ) حيث يكتب في مقدمة فهرس القرآن أن العالم خلق من جديد بميلاد محمد وفتح عينيه على مبادئ عالية وشريفة[٤].

وعلى الرغم من أن معرفة الشرق أصبحت أكثر يسراً وسهولة عما كانت عليه في القرون التي سبقت، وذلك يرجع إلى اتساع الاتصالات بين الشرق والغرب، ما أثر بدوره على تغير صورة الإسلام والعرب عند الغربيين، إلا أننا نجد في كتابات آخرين المنهج العدائي التعصبي نفسه المستند إلى تزوير وتشويه الحقائق، حيث نجد ميشال بوديبه[٥] (Michel Baudier) في كتابه "التاريخ العام للأتراك مع سيرة محمد وأعمال الخلفاء الأربعة" (١٦٣٢م) يتجه اتجاهاً متطرفاً في تصوير حياة الرسول الخاصة مع أسرته ضمن المحور الذي شدد عليه المستشرقون (أي زوجات الرسول (ﷺ)) وكأنها حياة ترف وتهتك، وأنه عليه السلام كان خاضعاً خضوعاً تاماً لنزواته الشخصية العاطفية وهذا أمر نابع من واقع هذه الأمور في التفكير الغربي، حيث

---

(١) زهر الدين، صالح، الإسلام والإستشراق، ص١٦-١٧.

(٢) أبو الفتوح، سيد حافظ، قالوا عن الإسلام: رسائل إلى سلمان رشدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي، [مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩] ص١٠٣.

(٣) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٥٠.

(٤) أبو الفتوح، سيد حافظ، رسائل إلى سلمان رشدي، ص٦٣.

(٥) قاسمي، محمد وداغرون، شانتال، أحكام الغرب حول المسلمين والعرب ترجمة فقيهي الصحراوي [أفريقيا الشرق، ١٩٩٨] ص١٣٤.

التهتك وعدم احترام المرأة والمشاعية الجنسية إلى حد الإبتذال والحيوانية، فانعكس هذا كله في تصوير الرسول الكريم عليه السلام وخضوعه للذاته.

المرحلة الثانية:

اتسعت مساحة الاحتكاك والتعامل بين الشرق والغرب وفرنسا خصوصاً مع الديار الإسلامية والعربية منها بحكم المصالح السياسية والإقتصادية مع ما تقدم من تطور مدارس تعليم اللغات الشرقية والعربية منها، كل ذلك مصاحب لانتشار العلم والثقافة والفنون والآداب والفلسفات التي شكلت بدايات النهضة الأوروبية.

لا شك في أن كل هذه المتغيرات تركت آثاراً إيجابية على النظرة الأوروبية عموماً والفرنسية خصوصاً تجاه الإسلام ونبيه، وبالرغم من صلابة الجذور الصليبية، نجد منهجاً جديداً ولغة جديدة في التعبير عن فهم الإسلام وسيرة نبيه (ﷺ). يذكر ان نسخة من كتاب "حياة محمد" • (La vie de Mahomet) (١٧٣٠م) للمؤرخ الكونت هنري دو بولنفييه (١٦٥٨-١٧٢٢م)، موجودة في الجامعة الأميركية في بيروت وهي الطبعة الثانية - امستردام - دون ذكر تاريخ الطبع تحت رقم:
(Second Edition Amsterdam chez francois guion. B136-297-CA)

كان من أوائل الكتب التي اعتمد فيها منهج مختلف عن التوجهات العدائية السابقة وورد فيه الكثير من افتراءات العصور الوسطى وأثنى على دور الإسلام في نشر التوحيد من الهند حتى إسبانيا والقضاء على عبادة الأوثان، وقد اعتبرها إنجازات رائعة لا تتفق مع الفكرة التي شوهت صورة محمد واعتبرته دجالاً كريهاً تنتابه نوبات صرع، وقد اعتبرها بولنفييه نوعاً من التمويه والخداع وتحدث عن إنتشار الإسلام بقوله: "إن محمداً كان مؤسساً لإمبراطورية أكبر من تلك التي أسسها المقدونيون أو الرومان. وفي حقيقة الأمر لا يحكم على هذا الدين الجديد في الوقت الراهن إلا كونه كذبة كبيرة انتشرت واتسعت بواسطة القوة في أمم قليلة الخبرة على القتال، إلا أن الجهل فضلاً عن الأحكام المسبقة لبعضهم، جعلتهم يخضعون لهذه الفكرة التي تعتبر نوعاً من الإزدراء إلا أنه من الضروري التأكيد على أنه لا يوجد تاريخ يحتوي على أحداث مهمة ومدهشة في الوقت نفسه كتاريخ المسلمين"[١].

ويحمل المستشرق الفرنسي ليبنز (Leibinz) التوجهات نفسها التي تنطوي على قدر من التحدي في عصره معتبراً أن محمداً رجل عظيم، ومصلح إجتماعي حتى أنه سبق بولنفييه في هذا الموقف[٢].

• انظر كذلك: بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص١٤٢.

(1) Boulainvillers: La Vie de Mahomet. P.P. (5, 6)

(٢) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٦.

في المقابل، ينطوي موقف فولتير - فرانسوا ماري Voltaire-Francois Marie (١٦٩٤-١٧٧٨م)، وكما يراه رودنسون، على التردد بين رأيه فيه كرجل سياسة ذي تفكير عميق وبين الحملة على محمد ذاته بوصفه ممثلاً لجميع المدعين الذين أسروا نفوس الناس بأساطيرهم الدينية[١].

و يزداد موقفه دهشة وغرابة في مسرحية التعصب التي شحنها بحوارات وشخصيات مفتعلة قائمة على التخيل، أكثر مما هي قائمة في الواقع التاريخي، مليئة بالمغالطات التاريخية مقدماً مسرحيته بقوله: "إلى رئيس الديانة الحقيقية ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية"[٢].

ويقول ديل ديورانت: "إن هذه المسرحية أثلجت صدور المسيحيين عندما صور الرسول مخادعاً تعمد أن يدس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل إيمانهم في استثارة هممهم للقتال"[٣]. وفي كتابه – أي فولتير – "محاولة عن العادات"، يميز بين المسلمين وذبيهم، فهم المتسامحون في حين ان محمداً رجل مخادع وسياسي سيئ، وهنا تظهر بعض آثار التحول وهي نتيجة تأثره بكتاب بولنفييه[٤].

و يرى بعض الكتاب أن فولتير إنما قصد مهاجمة التعصب الديني والكنيسة المسيحية الرسمية من خلال هجومه على الإسلام ونبيه، وأن موقفه كان تقييماً جديداً للإسلام كقوة دينية أكثر مما هو انعكاس لآراء القرون الوسطى[٥].

كما يرى المتعاطفون مع فولتير فيه المفكر الغربي الحر صاحب الدور البارز في تاريخ الثورة الفرنسية، وفي تأجيج حماس الفرنسيين للخروج من طوق الكنيسة وهيمنة الملكية، مستشهدين على حسن مقاصده بقاموسه الفلسفي حيث يقول: "نسبنا للإسلام كثيراً من السخافات و هو في الحقيقة خلو منها"[٦]. ويضيف: "الواقع ان المزايا التي يتمتع بها محمد تمحق الإنتقاد محقاً ولا تترك مكانه إلا الإعجاب والتقدير لشخصه ونبوغه العبقري"[٧].

---

(١) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٦-٦٧.

(٢) الجندي، أنور، الإسلام في غزو جديد للفكر الإنساني [مطبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٤] ص٤٣.

(٣) قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندرواس [ط١، مطبعة دار الجيل، ١٩٨٨]مجلد ٣، ص٣٥-

(٤) جعيط، هشام، أوروبا والإسلام، ترجمة طلال عزت، [ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠] ص٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٦) الجندي، أنور، الإسلام في غزو جديد للفكر الإنساني، ص٦٩.

(٧) أبو الفتوح، سيد حافظ، قالوا عن الإسلام، ص٣١.

وفي هذه المرحلة ظهرت في باريس ترجمة سفاري Maxim Savary (١٧٨٣م) للقرآن الذي اعتبر فيه محمداً مصلحاً حارب الوثنية لكنه رفض عقيدة التثليث[١].

أما المستشرق جان جانيه Jean Ganier (١٦٧٠-١٧٤٠م) فقد ترك الدير ولجأ إلى إنكلترا واعتنق المذهب البروتستانتي، وعمل استاذ اللغات الشرقية، وكتب سيرة النبي محمد (ﷺ) في جزأين معتمداً على المصادر العربية بعد أن ترجم السيرة النبوية للإمام عماد الدين أبي الفداء اسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م) إلى اللاتينية مع تعليقات وخرائط، وكان هذا أهم ما ميز كتابه بشيء من المنهجية العلمية لاستفادته من المصادر العربية[٢] في نتاجه عن سيرة النبي (ﷺ).

ومن المهم ملاحظته أن فرنسا في هذه المرحلة أظهرت نوعاً من الخصوصية، فقد حاولت من خلال أفكار وتوجهات الثورة تحرير الفكر من معتقدات الكنيسة والسلطة الملكية. أما بخصوص الشرق فقد تركز الاهتمام على الجوانب السياسية والإقتصادية، بالإضافة إلى إحياء وإنشاء كراسي اللغات الشرقية التي برعت فيها حكومات الثورة الفرنسية مع نتائج[٣] حملة نابليون على مصر. كل ذلك أدى الى أن تقود فرنسا بمؤسساتها العلمية حركة الإستشراق التي ظهر فيها ما يمكن أن نسميه أستاذ المستشرقين الأوروبيين سلفستر دو ساسي (١٧٥٨-١٨٣٨م) (Silvester de Sacy) الذي زار الشرق واهتم بالمخطوطات العربية التي نقل منها الكثير بطرق مختلفة، وكتب مقالة عن النبي محمد (ﷺ) يقول فيها: "إن محمد بن عبدالله المفكر العظيم والفيلسوف الكبير، دينه صالح لأن يبقى ولا يتغير، وإن محمداً كان معروفاً منذ الصغر بالصدق والأمانة والوفاء والتواضع"[٤].

أما جان جاك سيديو Jean-Jacques Sedeo (١٧٧٧-١٨٣٢م)، وفي كتابه "خلاصة تاريخ العرب" فيقول: "في فضل محمد على القبائل التي جعلها أمة واحدة وتقصد مقصداً واحداً وقد أظهرت للعيان أمة عظيمة"[٥]. كما أبرز دعوة النبي

---

(١) فرج، السيد أحمد، الإستشراق، الذرائع، النشأة، المحتوى [ط١، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٣] ص١٢٦.

(٢) ناجي، عبدالجبار، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٩٥.

(3) Sharfiuddin, Mohammed; Islam and Romantic Orientalism; I. Btauris; London; 1996; P-16.

(٤) أبو الفتوح، قالوا عن الإسلام، ص١٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ص٤١.

للأخلاق بالرغم مما رأى من فضل المسيحية على الإسلام معتبراً إياها أكثر تسامحاً[١].

ويعبّر نابليون في حملته على مصر عن فهم وإدراك الفرنسيين (حكام ومثقفين)، أهمية الإسلام في حياة الشرق، لدرجة أنه (أي نابليون) إدّعى الإسلام[٢] في إعلانه الذي وزعه على سكان الإسكندرية (١٧٩٨م) حيث يقول: "إن الفرنسيين يعبدون الله أكثر من المماليك كما أنهم يجلون الرسول والقرآن، وإن الفرنسيين مسلمون خلص"[٣]، وإن كان هذا الموقف ينطوي على حكمة سياسية تستهدف أن يسلم الناس قيادهم لهذا الغازي الجديد، إلا أنها تنطوي أيضاً على وعي تام بتأثير القرآن والدين الإسلامي في حياة الأهلين أيضاً.

فضلاً عن العوامل الأخرى، ثمة أسس لنظرة جديدة للإسلام ونبيه وسيرته توفرت من خلال المصادر الفنية لأناس أنقذوا اللغة العربية، فكتبوا عن السيرة النبوية بقدر أكبر من الموضوعية دون الإنسلاخ عن جذور الثقافة الدينية الفرنسية، لذلك كانت هناك آراء متعددة ووجهات نظر مختلفة في كتابات المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تطورات مهمة على الأصعدة السياسية والعلمية والصناعية على النطاق العالمي عامة والفرنسي مع العرب خاصة، عكست نفسها على الكتابات الإستشراقية الفرنسية، ومنها كتابات السيرة النبوية وفق مدارس ومناهج مختلفة كانت فيها النزعة الإستعمارية واضحة، إنسجاماً مع النشاط الإستعماري الفرنسي[٤] الذي حاولت فيه فرنسا اتباع سياسة الفرنسة والتنصير للشعوب المستعمرة.

شهدت هذه المرحلة نشاطاً تبشيرياً مميزاً، وجهوداً كبيرة ودؤوبة للمؤسسات التبشيرية في الجوانب التعليمية الصحية الإعلامية[٥]. ويحفل التاريخ الفرنسي في شمال أفريقيا وبلاد الشام بالجهود المميزة لنشر الدين المسيحي•، حيث تحولت مساجد

---

(١) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٠٣.

(٢) بوازار، مارسيل، الإسلام اليوم، [ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، اليونسكو، بيروت، ١٩٨٦] ص١٠٩.

(٣) الشرقاوي، محمد عبدالله، الإستشراق دراسة تحليلية تقويمية، ص٧١.

(٤) روم، جان بول، الإسلام في الغرب، تعريب نجدة طاهر وسعيد العز، [ط١، مطبعة المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٠] ص٦٥.

(٥) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٠٨.

• لقد عمل المبشرون تحت الغطاء الصحي حيث أسسوا العيادات الطبية للعلاج العام والمجاني. وعلى المستوى التعليمي لفرنسا في لبنان مثلاً مؤسسات تعليمية تبدأ من الروضة حتى

كثيرة إلى كنائس في الجزائر وتونس والمغرب، وعلقت الصلبان، وتحول العديد من عرب المغرب إلى كاثوليك بفعل الآباء، كما عمدت فرنسا إلى إلغاء الشريعة الإسلامية في الجزائر ومنع فقراء المسلمين من التجول في البلاد[١].

وشهدت هذه المرحلة نشاطاً وتنافساً فرنسياً إنكليزياً للتنقيب عن الآثار وكان لبعض القناصل الفرنسيين دور مميز برز منهم القنصل جول أميل بوتي (١٨٤٣) في العراق وقنصل البصرة إميل دو سارزاك بما استولوا عليه من الآثار ونقلوها إلى متحف اللوفر في بلادهم (١٨٧٧-١٨٧٨م). وتطورت أعمال التنقيب في القرن العشرين، فتكونت الفرق الكبيرة المتخصصة ومنها تلك التي أجرت تحرياتها الأثرية في "كيش" في العراق برئاسة دو جواك سنة (١٩١١م) [٢].

كما تميزت هذه المرحلة بمعايشة المستشرقين للحياة الشرقية عن كثب من خلال مكوثهم أوقاتاً قصيرة أو طويلة تمتد إلى سنوات في بلاد الشرق، الأمر الذي أتاح الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة، فظهرت الكتابات المستندة إلى كتب السيرة العربية والمستدلة بآيات قرآنية، إلا أن أبرز ما يسجل على كتابات هذه المرحلة، الانتقائية في استخدام المصادر العربية، أي استخدام المعلومات التي تتفق ومقاصد الباحث بغض النظر عن دقتها وصحتها وموقف كتّاب السيرة العرب منها.

وقد حاول بعض المستشرقين اعتماد آيات وأحاديث وتفسيرها بشكل مغلوط ومجزأ، فأظهروا كل شاذ وغريب وضعيف ليسلطوا الضوء عليه، كما ظهر منهم من يشكك بصحة المصادر العربية الأصيلة التي تتعارض مع مواقفهم وآرائهم، حتى وصل التشكيك إلى مضمون محتويات القرآن. وفي المقابل ظهر من المستشرقين من نسجل لهم محاولاتهم في إحقاق الحق، ووضع الأمور في نصابها، وحاولوا اتباع المنهجية العلمية فظهرت نتاجاتهم على جانب كبير من الموضوعية.

فالمستشرق بارتلمي سانت هيلر[٣] Barthe'lmy Saint-Hilare (١٨٠٥-١٨٩٥م) في كتابه "محمد والقرآن" (١٨٦٥م)، يعتبر الذبي داعياً لعبادة إله واحد وهو في دعوته رحيم حتى مع أعدائه وهذه تعد من أرقى الصفات التي يمكن أن تحملها النفس الإنسانية[٤].

الجامعات والمعاهد أبرزها الجامعة اليسوعية أو جامعة القديس يوسف التي توجه دينياً من الفاتيكان وسياسياً من فرنسا وكذلك معهد الآداب الشرقية إضافة لمؤسسات إعلامية معروفة بتوجهاتها التبشيرية، انظر: جبري عبدالمتعال، الإستشراق وجه الإستعمار، ص٢٩.

(١) الجليند، محمد السيد، الإستشراق والتبشير، ص٧٥.

(٢) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، [ط١، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٧٣] ج١، ص١١٧.

(٣) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ص٢٠٥.

(٤) أبو الفتوح، سيد حافظ، قالوا في الإسلام، ص٩٤.

و كذلك المستشرق إيزاك تيلر (١٨١٠-١٨٩٧م) في كتابه خصائص التاريخ يقول: "إننا إذا أمعنا النظر، لا نجد من أعمال محمد ونبوته شيئاً يتناقض مع النصرانية في جوهرها أو يقف لها بالمرصاد... أما تعدد الزوجات فهو أمر لم يحرمه داود في الزبور ولا موسى في التوراة"[١]، في حين كان لارنست رينان• Ernest Renan (١٨٢٣-١٨٩٢م)، رأي آخر في الإسلام والعرب والرسول الكريم محمد (ﷺ) من خلال مؤلفاته "تاريخ شعب إسرائيل" معتبراً أن تاريخ الحضارة الإنسانية في مجمله هو تاريخ الغرب فقط، أما الإسلام فكان حرباً على حرية الفكر وأنه كبت جميع الحركات العلمية وحارب العلم والفلسفة[٢]. كما تحمل كتاباته شيئاً من التناقض إزاء الإسلام ورسوله والعرب، ففي حين يصف النبي (ﷺ) "بالدجل والخداع"، يعود ليصفه بالصلاح والصدق، وهذا ما حدا "بيكافيه" أحد أكبر الباحثين في آثاره الى القول عنه: "إنه رجل يقلب أوضاع الأشياء والمسائل وذلك لاختمار النزعة الصليبية في عقله الباطن"[٣].

ومن المستشرقين الذين فهموا الإسلام وأشادوا بالنبي (ﷺ) ودافعوا عنه ضد الذين حاولوا تشويهه والإساءة لرسوله محمد (ﷺ)، المستشرق الكونت هنري دو كاستري Comte Henrie De Castry (١٨٥٠-١٩٢٧م). كان عقيداً في الجيش الفرنسي، عاش في الجزائر مدة وألّف كتاباً بعنوان "الإسلام سوانح وخواطر" (١٨٩٦م) وتضمن رداً على جملة المفتريات الغربية بحق محمد (ﷺ) حيث يقول: "لقد ذهبوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية ومن المستغربات قولهم إن محمد الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس إلى عبادته في صورة وثن من ذهب"[٤]. واستمر دو كاستري في عرض المفتريات الغربية والرد عليها فيقول: "لقد ادعوا أن محمداً (ﷺ) ادعى الأمية لكنه في الحقيقة كان يقرأ ويكتب فأخذ تعاليم دينه من الأديان والمعتقدات الدينية السائدة آنذاك. إلا أن محمداً (ﷺ) ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان وكما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك في أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم، بحيث لا

---

(١) المصدر نفسه، ص٩١.

• ولد في مدينة تريجية، دخل المدارس اللاهوتية، تضلع باللغات الشرقية، نزل في لبنان عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي (١٨٧٨م). من آثاره: ابن رشد الرشديين (١٨٥٢م)، تاريخ اللغات السامية (١٨٥٧م)، تاريخ الأديان (١٨٦٣م)، حياة اليسوع (١٨٦٣م) كتبه في لبنان، موسوعة المستشرقين، ص٣١١.

(٢) زهر الدين، صالح، الإسلام والإستشراق، ص٩٥-٩٦.

(٣) حمدان، نزير، الرسول في كتابات المستشرقين، ص١٧٤.

(٤) دي كاستري، هنري، الإسلام سوانح وخواطر، ترجمة أحمد فتحي زغلول [السعادة، مصر، بلا] ص٨.

يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان"[١]. ويقول أيضاً: "إن محمداً (ﷺ) لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد أو يقتبس من أي دين أو مذهب"[٢]. ويصف دو كاستري حال النبي عند نزول الوحي ويرد على الإدعاء بأن ما يعانيه عليه السلام هو اضطراب عصبي فيقول: "إن النبي الذي بدأ رسالته بعد الأربعين، لم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال أو إضطراب في الجسم أو القوة"... "إن حياة النبي وسيرته عُرفتا لدرجة وصل فيها المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته"[٣] وإن ما كان يشعر به محمد (ﷺ) عند الوحي تحدث به موسى في وصفه لحاله عند نزول الوحي؛ وأخيراً نراه يصف القرآن الكريم قائلاً إن هذه الآيات التي جاء بها النبي الأمي هي آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى[٤]. ويعزو دو كاستري مقاصد المستشرقين الذين حرّفوا وأساؤوا إلى خدمة المقصد المسيحي وليس قصدهم التاريخ[٥].

ويأتي في مقدمة المستشرقين الذين كتبوا عن السيرة النبوية بعقل منفتح واستقبال روحاني وعلمية وموضوعية أدت به إلى أن يكون مسلماً مؤمناً وشاهداً بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، المستشرق الفونس اديان دينييه• Alphonse-Etienne Diniet (١٨٦١ – ١٩٢٩م) الذي سُمي ناصر الدين فقد كتب للإسلام ونبيه مجلداً ضخماً بالفرنسية زينه بالصور والرسوم معتمداً على كتب السيرة لإبن هشام وإبن سعد، بأسلوب أدبي وفني ممتع، وهو ما أثار حفيظة الكثير من المستشرقين الذين ساءهم أن لا يستند إلى كتاباتهم في موضوع السيرة النبوية. وما ميز كتابه في السيرة أنه حرص على إيراد النصوص المتفقة مع القرآن والإبتعاد عن المبالغة الخوارق التي نسبت للنبي (ﷺ) بعد زمن من وفاته، وأشار إلى ذلك حين قال: "الحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات أن محمداً (ﷺ) هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهية

---

(١) دي كاستري، هنري، الإسلام سوانح وخواطر، ص١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٨.
(٥) المصدر نفسه ص٣٣.

• ولد في باريس، كان فناناً مرهف الحس، اسلم بعد بحث وتأمل وتعمق في الإسلام في جامع بالجزائر (١٩٢٧م). توفي في باريس. دفن في الجزائر في قبر كان أعده لنفسه، شارك في تشييعه كبار قومه الرسميين وأصدقائه، من آثاره: حياة العرب، الشرق كما يراه الغرب، حياة الصحراء، محمد رسول الله (ﷺ).

رسالته ووضوحها وعلى بلاغة القرآن الإلهية، وإن استغناء محمد (ﷺ) عن الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق"[١].

واشتمل كتابه على سيرة النبي (ﷺ) حتى وفاته مفرداً فصلاً للحديث عن أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا.

ومن المستشرقين الذين استفادوا من إقامتهم في ديار الإسلام، واطلعوا على حياة المسلمين عن كثب وقرأوا السيرة من المظان العربية الأصيلة، موريس جوديفروا ديمومبين Maurice Gaudefroy De Mombynes (١٨٦٢-١٩٥٧م) الذي تناول السيرة النبوية في مؤلفه "النظم الإسلامية" (Les Institutions Musulmanes) (١٩٢١م) بشكل مكثف وشامل، فتعرض بأسلوب السرد التاريخي لأحداث السيرة بدءاً من حياة محمد (ﷺ) قبل البعثة.

وباستعراض فصول كتابه نجده يشترك في عدة غير قليل من الموضوعات مع غيره من المستشرقين في تفسير الأحداث وطريقة روايتها والتركيز على موضوعات معينة مثل سعة إنتشار المسيحية في الجزيرة والمناطق المجاورة لها. فيقول: "في بداية القرن السابع الميلادي تسربت إلى الحجاز عدة تيارات فكرية أجنبية عدة فتأثر بها بعض الأفراد بدرجة كافية"[٢] إلى أن يصل لما مفاده "أنه بالإمكان أن نفترض بأن الذبي تأثر بالعقائد النصرانية واليهودية التي اعتنقها البعض في مكة[٣]، كما يعتبر زواج النبي (ﷺ) من خديجة رضي الله عنها قد حرر الرسول (ﷺ) من الأعباء المادية ليتفرغ للتأمل والتفكير، ويشبه سرايا وغزوات الذبي (ﷺ) بعادات البدو في سلب ونهب جيرانهم، كما يتعرض في كتابه إلى علاقة النبي (ﷺ) مع اليهود وطبيعتهم المخادعة التي أدت إلى طردهم.

كما يتناول سيرة الرسول (ﷺ) بشكل واسع في كتابه "محمد" (١٩٥٧م) مثيراً الجدل حول اسم الذبي عليه السلام في قوله: "إلا أنه يبقى الشيء غير المفهوم أن محمداً (ﷺ) لم يكن يدعى أحمد"[٤]، ويقصد هنا الاختلاف حول ما ورد عن اسم النبي في الكتب السماوية السابقة (أحمد).

كما يعيد في كتابه "محمد" الرأي نفسه حول اتصال الذبي بالمسيحية، مضيفاً اعتقاده بأن اللقاء الأول له مع النصرانية كان مع الراهب بحيرا، ويشير إلى أن محمد

---

(١) دينييه، اتيان، وسليمان إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة عبدالحليم محمود ومحمد عبدالحليم [مطبعة النهضة، مصر، ١٩٦١] ص٥٥.

(٢) ديمومبين، النظم الإسلامية، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر [بغداد، ١٩٥٢] ص١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩.

(4) De Mombynes, Mohamed, Albin Michel, Paris. 1957. P65

(ﷺ) "كان عليماً بالكتب السماوية التي سبقته فقد كان يشعر بأن لديه المصدر نفسه الذي يدفعه للتفكير والتدبير"[١].

وبالرغم من بعض المآخذ على كتاباته بخصوص السيرة والتي أوردناها سابقاً، إلا أنها تميزت بالعمق والشمول واستخدام المصادر الإسلامية حيث يرى المؤرخ عبدالرحمن بدوي أنها أفضل ما كتب باللغة الفرنسية عن السيرة النبوية[٢].

ويبقى ابرز المستشرقين تشويهاً وتطرفاً ضد الإسلام ونبيه، هنري لامانس • Henrie Lamence (١٨٧٢-١٩٣٧م)، فقد كان شديد التعصب ضد الإسلام، مفرطاً في عدائه وافتراءاته لدرجة أقلقت بعض المستشرقين أنفسهم"[٣].

يقول مكسيم رودنسون Maxim Rodinson معلقاً على كتاباته: "ظهر رجل هيمن على الدراسات الأوروبية المتعلقة بمحمد خلال الثلث الأول من القرن العشرين، ذلك هو البلجيكي اليسوعي، فرنسي المشاعر، المستشرق المعروف الذي رشحت خبرته الكهنوتية على اتجاهه الإستشراقي"[٤].

كتب لامانس أكثر من عشرة مؤلفات في الإسلام والنبي وآل بيته عليهم السلام، واصفاً الرسول (ﷺ) "بالمزيف والجبان والأكول والنؤوم كارهاً للوحدة"، كما أساء إلى أعلام المسلمين وأمهات المؤمنين[٥]، وشكك بالحديث والمصادر الإسلامية التي لا تتفق ووجهة نظره وملأ مؤلفاته بالحواشي لمصادر توحي بعمق بحثه وعلميته، ولدى التدقيق فيها، نجدها إما غير موجودة أو مفسرة بطريقة خاطئة ملتوية[٦].

ويقول في كتابه (الإسلام) إنه يمكن التعرف على حياته أي حياة الرسول عليه السلام من خلال القرآن أو من خلال ما توارد عنه من أخبار، وتسمى السيرة التي جمعت ودونت منذ نهاية القرن الأول للهجرة. ويعتبر لامانس انها تحكي حياة الرسول بإطناب، وخضعت لانتقاد شديد من المستشرقين[٧]. وله أيضاً رأي

---

(1) Ibid, p.69

(٢) موسوعة المستشرقين، ص٢٧٢.

• يعد الأب هنري لامانس من أوائل علماء الجامعة اليسوعية في بيروت، ودرس اللاهوت وتولى إدارة التبشير في بيروت. انظر: جبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص٧٧.

(٣) البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث، صلته بالإستعمار الغربي [ط٩، دار غريب، القاهرة، ١٩٨١] ص٤٥٢.

(٤) الشرقاوي، محمد عبدالله، الإستشراق، دراسة تحليلية، تتقويمية، ص١٤٦.

(٥) جبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٠٧-١١١.

(٦) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٩.

(7)Lammence, Henrie, L'Islame, Croyances et Institutions; 3me Edition, Beyouth; 1943, p.32

بخصوص اسم الرسول (ﷺ)، حيث يرى أن اسم محمد أو أحمد لم يرد في القرآن إلا في السور المدنية وليس قبل ذلك[1]، وهنا يريد أن يوحي بأن محمداً اسم الرسول أعطي له بعد البعثة وبعد أن اطلع النبي (ﷺ) على الكتب المقدسة والسابقة التي يرد فيها أن النبي اسمه أحمد.

أما هنري ماسيه Henrie Masse (١٨٨٦-١٩٦٩م) فتنطوي كتاباته في السيرة على نقد ما كتبه المسلمون في هذا الموضوع لاحتواء مؤلفاتهم على معلومات أسطورية عن الرسول: "إن السيرة أدخلت أشياء خارقة في تاريخ حياته بشكل تستطيع فيه أن تجعله مساوياً لموسى والمسيح"[2].

وخصص فصله الأول من كتابه "الإسلام" لسيرة النبي (ﷺ) بدءاً من طفولته التي اعتبر انها افتقدت الى السعادة واتسمت بالحزن بسبب ما لاقاه الرسول عليه السلام من اليتم المبكر[3]. كما ابرز علاقة الرهبان النصارى بالنبي محمد عليه السلام وأثر اليهود في الإسلام، والذين حاول محمد عليه السلام استمالتهم إليه، وزودته هذه العلاقة بمعلومات عن العهد القديم[4].

من جهته، يرى لويس ماسييون Louis Massignon (١٨٨٢-١٩٦٢م) في محمد عليه السلام نبياً مخلصاً وصادقاً في رسالته، ومرد ذلك الإخلاص إلى عدم ادعائه الخارق والمعجزات وعدم منحه صكوك الغفران أو ادعائه معرفة الغيب؛ وعبر عن الهجرة النبوية بقوله: "عندما أعيته الحيلة، ترك مسقط رأسه مهاجراً إلى المدينة، فنظم أمور مجتمعه كما اضطر لإستخدام السلاح لتحقيق ما كلفه به ربه"[5]؛ ويقول في مقالة له عن وفاة الرسول (ﷺ): "عندما شارف محمد على الموت لم يطلب تشييع جنازته، فقد تم دفنه في مكانه كقائد يسقط في أرض المعركة المقدسة محاطاً بمساعديه وخليفته"[6].

أما إشكالية محمد Le Probleme de Mahomet (١٩٥٢م) فكانت عنوان مؤلف للمستشرق الفرنسي ريجي بلاشير Regis Blachere (١٩٠٠-١٩٧٣م)، وهو عبارة عن تلخيص لكتابات وأبحاث المستشرقين الذين كتبوا في سيرة الرسول عليه

---

(1)Ibid, p.32

(٢) ماسييه هنري، الإسلام، ترجمة بهيج شعبان [ط١، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٠] ص٤٠.

(٣) ماسيه هنري، الإسلام، ص٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٢.

(٥) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج٣، ص١٨.

(6)Massignon, Louis (La Rawda du Medine) Instiut Francaise d'archeologie orientale. P. 242 Egypte. 1960.

الصلاة والسلام[١]، منتقداً بولنفيه، واعتبر ان دفاعه عن الإسلام يعود الى عدائه للمذهب الكاثوليكي الرسمي[٢]، كما يعتقد أن الكنيسة المسيحية أخطأت في فهم محمد حين اعتبرته مذشقاً يدّعي أنه ملهم في حين إنه "في واقع الأمر تلقى تعاليمه من راهب خارج العقيدة القويمة"[٣].

أما كلود كاهن[٤] Claude Cahen (١٩٠٩-١٩٩١م) فقد ركز على العامل الإقتصادي في دراسته تاريخ العالم الإسلامي، وأفرد فصلاً لاستعراض حياة النبي (ﷺ) بشكل موجز في كتابه "تاريخ العرب والشعوب الإسلامية" منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية (١٩٧٢م)، وفيه يرفض الاتهامات التي سيقت بحق النبي ويعزوها لأسباب طائفية قديمة ويعتبرها مهاترات لا يليق بالمؤرخ المنصف أن يرى في الرسالة الدينية نتيجة من نتائج الصرع[٥]، إلا أنه يلقي بذور الشك في المصادر الأساسية التي نستقي منها السيرة النبوية و هي القرآن الذي "لم يدون إلا عقب وفاة الرسول"[٦] وأن سوره رتبت بشكل لا يتطابق وترتيب النزول، وبالرغم من أن القرآن ضم تعاليم الرسول إلا أنه لا يتضمن ما يساعد على معرفة سيرة النبي (ﷺ) [٧]،أما المصدر الثاني فهو الكثير من الأحاديث الموضوعة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، وفي ظروف المنازعات الدينية والسياسية[٨].

ويعتبر أن شخصية النبي (ﷺ) اصطبغت بصبغة تاريخية قد لا تتوفر عند أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات الكبرى "فهو رسول عقيدة ومؤسس دولة"[٩]. كما يتحدث عن علاقة النبي باليهود الذين رغب منهم المناصرة، ولما تبدد أمله منهم أيضاً، أخذهم بالعنف عن طريق القتال والتهجير[١٠]، إلى أن جعل المدينة بيئة

---

(١) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٢٧.

(٢) بلاشيير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ترجمة رضا سعادة [ط١، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤] ص١٨.

(٣) بلاشيير، القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ص١٢

(٤) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٦٠.

(٥) كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم [ط١، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢] ص١٨.

(٦) كاهن كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص١٤.

(٧) المصدر نفسه، ص١٤.

(٨) المصدر نفسه، ص١٥.

(٩) المصدر نفسه، ص٢٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص١٧.

منسجمة في جماعاتها. ويعد مغازي الرسول (ﷺ) مظهراً من المظاهر التي أعتادت عليها القبائل في ما بينها، إلا أنها فاتحة الحرب المقدسة أو الجهاد في سبيل الله[١].

أما مكسيم رودنسون Maxim Rodinson (١٩١٥م) و هو من أنصار التفسير المادي للتاريخ[٢]، فقد كان له إهتماماته بموضوعات التراث الإسلامي وبسيرة الرسول التي تصدى لدراستها في كتابه "محمداً" Mohammed[٣] (١٩٦١م) ويتحدث فيه عن تاريخ ولادة الرسول ويعتقد أنه لا أحد يعرف يقيناً متى ولد الرسول (ﷺ) كما لا يمكن التأكد من الروايات بالرغم من إمكان قبولها، وان لا شيء مؤكداً حول طفولته[٤]، وأن الأساطير ملأت فراغاً كبيراً من هذا الموضوع[٥]. ويرجع زواج النبي (ﷺ) من خديجة رضي الله عنها التي تكبره إلى المبررات النفسية التي ولدتها الطفولة اليتيمة[٦]. ويعتبر دور النبي في المدينة متواضعاً وينحصر في التحكيم بين الأطراف المتعارضة للجماعات التي تعيش فيها[٧]، كما يصف ما جرى مع اليهود بالمجزرة[٨].

وهكذا نرى رودنسون يرفض كل الأحداث التي لا تجد لها في المنطق المادي مبرراً لوجودها، ويشكك بالكثير مما ورد في المصادر العربية الإسلامية[٩].

وذختم مبحثنا بكتاب "محمد كلام الله" Mahomet- La Parole d'Allah لـ آن ماري دلكامبر Anne-Marie Delcambre والذي يتضمن سرداً لأحداث السيرة النبوية، دون تدخل من الكاتبة، ما خلا بعض الموضوعات التي تلمح فيها إلى موقف، كاليهود الذين أخبروا بظهور نجم جديد في السماء والفرس الذين أخبروا بأن نارهم ستنطفئ[١٠] وأن غزوات الرسول (ﷺ) كانت من جهة لضمان عيش هؤلاء النفر من المهاجرين الذين لا يستطيعون الاعتماد على ضيافة مسلمي المدينة بشكل

---

(١) كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص١٧.

(٢) قبيسي حسن، رودنسون ونبي الإسلام [دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١] ص٨٠.

(3)Rodinson, Maxime, Mohammed, translated from French by Anne Carter, Penguin Book, 1983

(4) Ibid; P-38

(5) Rodinson, Mohammed. P-34.

(6)Ibid. P51.

(7)Ibid. P154.

(8)Ibid. P-213.

(٩) الحاج، الظاهرة الإستشراقية، ج٣، ص٥٩ و ٢٠٧.

(10)Anne- Marie Delcambre, Mahomet – La Parole D'allah, Edition Galimard Paris. 1987. P-27.

دائم، ومن جهة أخرى اتباعاً لتقليد الأجداد بالغزوات[1]، ويعتبر أن الإسلام شيد أعظم إمبراطورية تأثيراً في القرون الوسطى بالسيف والقرآن[2].

(1)Ibid. P-85.
(2) Ibid. P-117.

المبحث الثاني

حياة محمد La vie de Mohammed كتاب لإميل درمنغم

Emile Dermenghem

نموذجاً للإستشراق الفرنسي

تبحث هذه الرسالة في الإستشراق الفرنسي تحديداً، لذلك انصب الجهد على البحث عن أهم المستشرقين الفرنسيين الذين صنفوا عن حياة الرسول الكريم محمد (ﷺ) لاختيار نموذج مناسب يعبر عن الاتجاهات العامة للإستشراق الفرنسي في موضوع السيرة.

وصار المستشرق إميل درمنغم Emile Dermenghem وكتابه "حياة محمد" La Vie de Mohammed النموذج للإستشراق الفرنسي لأسباب عدة أهمها:

- أنه من مستشرقي القرن العشرين، ما يعني أن كتابه يمكن أن يكون حصيلة تطور منهجية المستشرقين الفرنسيين وطبيعة نظرتهم إلى السيرة النبوية الشريفة.
- اعتمد بالدرجة الأولى في مصادره على القرآن وكتب السيرة والمغازي.
- يسلط الضوء على المحاور نفسها التي شدد عليها المستشرقون عموماً ويطرح التساؤلات والتفسيرات نفسها تقريباً.
- أن هذا الكتاب مترجم بشكل جيد من قبل المترجم المعروف الأستاذ عادل زعيتر الذي لم يضيع الفرصة في التعقيب "إلا قليلاً" على بعض تفسيرات درمنغم لأحداث السيرة.

لقد عرف درمنغم العربية لأنه كان من موظفي بلده في الجزائر حيث عين مديراً لمكتبة الجزائر.

من آثاره "قصص من فاس" طبع سنة (١٩٢٦م)، و"حياة محمد" طبع أول مرة سنة (١٩٢٩م) و"محمد والسنة" (١٩٥٥م)، ويعد الكتاب الذي نخضعه للدراسة (حياة محمد) من أشهر كتبه، فقد طبع مرة ثانية عام (١٩٥٠م).

اعتبره العقيقي "خير ما صنفه مستشرق عن حياة النبي (ﷺ) ويرجع إليه علماء المسلمين"[١]، أما الأستاذ محمد حسين هيكل فيقول عنه إنه "واحد من المستشرقين الذين عرضوا لحياة محمد بشيء من الإنصاف"[١].

---

(١) المستشرقون، ج١، ص٢٩٨.

ويستشهد بآرائه عدد آخر من الكتاب العرب المسلمين في رد التشويه والأباطيل والتهم التي أطلقها عدد من المستشرقين[٢] بحق الرسول (ﷺ).

وعلق عليه زعيتر في مقدمته "أكثر الكتب التي ألفها الفرنسيون اعتدالاً، والمؤلف مع ما ساده من حسن النية لم تخلُ سوانحه وآراؤه من زلات"[٣].

وما يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة كتاب درمنغم (حياة محمد) مدى اعتماده على المراجع والأصول التي استمد منها أحداث السيرة، حيث يذكر في كتابه أنه اعتمد على القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف ومؤلفات السيرة والمغازي، وهي في الحقيقة المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها في هذا الميدان وإن كان الباحث مستشرقاً.

كما يجب أن لا نغفل حقيقة مهمة عند دراسة آراء درمنغم وتفسيراته، خاصة ما يتصل منها بعدد من الأحداث التاريخية ذات العلاقة بحياة الرسول الكريم (ﷺ) والتي لا يتقبلها العقل مباشرة.

فالعقل الغربي عموماً مادي يعتقد بما يصنعه الإنسان وبما يراه، وقد طغت النزعة المادية كثيراً على عقلية المفكرين الغربيين في القرن العشرين منحية أي دور للقوى الغيبية في صناعة أقدار البشر مهما حاول أن يتمثل ظروف الزمن الذي بعث فيه النبي محمد (ﷺ).

بلغت عدد صفحات الكتاب ٣٧١ صفحة اشتملت على مقدمة أبرز فيها المؤلف يقينه بنبوة محمد، والدافع إلى تأليف سيرة ناطقة صادقة للنبي، معبّراً عن أسفه لوجود بعض الكتابات المسيئة والناقصة، مبتعداً بشكل متعمد عما يراه "ظاهر الوضع" وعما يعتبر أنه اخترع من المعجزات بعد وفاة النبي بقرنين من الزمن.

من هنا، اعتبره عدد من المفكرين الأكثر اعتدالاً في موقفه من بقية المستشرقين.

ويشتمل الكتاب على بابين:

الأول "باب مكة" ويتضمن عشرة فصول، والثاني "باب المدينة" ويقع في أربعة عشر فصلاً.

---

(١) حياة محمد، ط٥، ص١٠، انظر كذلك: غلاب، محمد، نظرات استشراقية في الإسلام [دار الكتاب العربي، مصر] ص٧٢.

(٢) جبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٢، الهراوي، حسين، المستشرقون والإسلام. فرج، عز الدين، نبي الإسلام في مرآة الفكر العربي [العالمية، القاهرة، بلا] ص٣٧. انظر كذلك: لوثروب ستودارد الأميركي، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض [ط٣، دار الفكر، ١٩٧١] مجلد١، ص٤٣.

(٣) درمنغم، حياة محمد، ص٧.

لا يتمثل الهدف في عرض الكتاب فحسب، بل يتركز في كشف التوجهات المؤسسية والرئيسية في نظر درمنغم لسيرة النبي عليه السلام وحياته.

ونظراً إلى تشعب هذه النظرة، تطلب الأمر التركيز على المحاور الأساسية التي نلمس لدى قراءتها للوهلة الاولى هدفه الذي لا يبتعد كثيراً عن غيره.

المحور الأول: الصحابي سلمان• رضي الله عنه

ينحو درمنغم في كتابه منحاً جديداً في تعرضه لحياة النبي عليه السلام، إذ أن أغلب المستشرقين[1] يبدأون الحديث عن جزيرة العرب ثم مكة فظهور النبي (ﷺ)، الا انه وبخلاف ذلك بدأ كتابه بموضوع لا يفهم منه إلا محاولة لعرض بداية الإسلام على أنه متأثر باليهودية والنصرانية، فكان الحديث عن سلمان الفارسي رضي الله عنه (اصطلح على تسميته سلمان الخير) وتسليط الضوء على تنقلاته من فارس إلى الشام والقدس ثم اعتناقه النصرانية، وحياته في بعض الكنائس في كنف أساقفتها لينتهي به المطاف عاملاً لدى سيده اليهودي في يثرب.

ومن خلال قصة سلمان، يستعرض المؤلف طبيعة المدينة ومناخها وانتظار ها مقدم الرسول (ﷺ).

بعد ذلك يصنف شكل الرسول (ﷺ) بتفصيل دقيق، ويستعرض قصص إسلام بعض الشخصيات المهمة في يثرب، كسعد بن معاذ، عمرو بن الجموح، وأسيد بن حضير.

كما يشير بشكل واضح إلى وجود النصرانية في المناطق الغربية من الجزيرة العربية، ووجود نصرانيين بين العرب واليهود في الجزيرة العربية، كذلك اعتقاد سلمان بصحة نبوة محمد (ﷺ) بالتثبت من وجود خاتم النبوة في كتفه كما أشار اليه أحد القساوسة الذين مر عليهم سابقاً[2].

• معروف سلمان الفارسي لكن الرسول الكريم جعله من آل البيت – سلمان منا آل البيت – قال عنه ابن الأثير أنه مولى رسول الله (ﷺ) ويعرف بسلمان الخير وسلمان الإسلام، قيل عنه إنه علم العلم الأول والآخر بحر لا يترف. أنظر: ابن الأثير، أبي الحسن عز الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني.
(ت ٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، [دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٧م] مج٣، ص٣٢٨-٣٣٠. انظر كذلك: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي، تهذيب تاريخ دمشق الكبير [ط٤، دار المسرة، بيروت، ١٩٧٩] ج٦، ص١٩٠.

(١) ينظر على سبيل المثال: - R. Blachiere.Le problem de Mahomet Essai de biographie critique du fondateur de l'Islam, Paris, 1952 (إشكالية محمد، مقالة نقدية عن حياة مؤسس الإسلام بالفرنسية).

- W. Muir, the life of Mohammed. (Edimburgh. 1923).

- Montgamery Watt, Mohammed at MCCA (London, New York 1953).

- M. Gaudefroy, Demombynes, Mahomet, Paris, 1957.

- حتى غليوم وهو يتحدث عن الإسلام، عندما يتناول النبي محمد (ﷺ) في الفصل الثاني فإنه يبدأ الفصل الأول عن الخلفية التاريخية للجزيرة العربية وصولاً إلى الرسول الكريم، انظر:

- (Alfred – Guillaum, Islam (Great Britain, 1956).

- Anne – Marie Delcambre, Mahomet – la Parole d'Allah, Universite Saint – Joseph, Liban, 1995.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٣٢.

المحور الثاني: طفولة النبي عليه السلام وشبابه

يتضمن هذا المحور ولادة النبي عليه السلام في عام الفيل وما رافقه من أحداث في شبابه، حتى زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها.

وفيه وصف لحملة أبرهة الحبشي نائب النجاشي لاحتلال مكة، يرافقها فيل، أواخر القرن السادس الميلادي، والأسباب التي أدت إلى فشل هذه الحملة معللاً ذلك بتفشي "وباء الجدري الذي فتك بالجيش فتكاً ذريعاً، فتقهقر من بقي منه، فعزت القصة البثور إلى حجارة سماوية ومنها طير أبابيل حافلة بالأسرار"[1].

ولذلك سمي هذا العام بعام الفيل، وحدد ولادة الرسول (ﷺ) بعد هذه الحادثة بمدة قصيرة، واتخذ العرب كعادتهم في تواريخ الأحداث عام الفيل مبدأ لسنواتهم. كما يصف تأثير فشل أبرهة في حملته على مركز مكة الديني والتجاري، ثم يتعرض إلى مكة ومناخها وطبيعتها وقلة الزرع وشح مياهها، فهي كما ذكر القرآن الكريم في ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[2]، كما يتعرض لأثر العوامل الطبيعية على الحياة الاجتماعية.

يصف توزيعات السكن في مكة بتفصيل دقيق، ودورها التجاري بحكم موقعها في طريق القوافل، ووضعها الإقتصادي الذي تحكمه قوانين الجشع والربا والسمسرة والتجارة، ملمحاً في بعض السطور إلى رفض النبي (ﷺ) لهذه المساوئ، مع إشارة خفية إلى اتصال الرسول عليه السلام قبل البعثة ببعض النصارى واليهود الذين كانوا يمرون في مكة "فعند هؤلاء يبحث محمد عن الأدلة"[3].

حرب الفجار

لعل درمنغم يميل في انتقاله إلى هذا العنوان لإبراز الجانب العسكري من حياة محمد (ﷺ)، لكنه لا يصل إلى هذه النتيجة من دون أن يعرج على طفولة النبي عليه السلام وحليمة السعدية المرضعة، والسنوات الخمس التي قضاها في ديار بني سعد راعياً للغنم، ليسجل موقفه من قصة شق صدر الطفل محمد وغسل قلبه بالثلج الأبيض، معتبراً أنها أسطورة ذات مغزى فلسفي لما ينطوي عليه إخراج الدرنة السوداء من معنى لجهة تطهير القلب والورع الصوفي.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٥.

(٢) سورة ابراهيم، الآية ٣٧.

(٣) درمنغم، حياة محمد، ص٤٣٠.

ويعتبر أن هذه القصة وُضعت بعد وفاة الرسول لأنه يعتبر أنها نشأت بعد قول القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [١].

كما يتطرق الى وفاة والدته وكفالة جده له ثم عمه أبي طالب، وصولاً إلى مشاركته عمه في رحلته إلى الشام، ليضعنا أمام لوحة تفصيلية لكل ما يمكن أن تقع عليه العين في طريق الرحلة، ملمحاً أيضاً إلى إمكانية اتصال النبي محمد (ﷺ) بالنصارى وتأثره بهم خلال هذه الرحلة عبر تكراره لوجود الرهبان في الطريق ولقائه بالراهب بحيري الذي رأى ، حسب كتب السيرة ، كما أورد درمنغم "أن محمد هو النبي المنتظر"[٢].

واستغل حديثه عن سوق عكاظ ودوره التجاري والثقافي والديني كملتقى القبائل والقوافل والأديان والشعراء، مستفيضاً في الكلام عن خطبة حكيم العرب "وأسقف نجران الشهير قس بن ساعدة"[٣] والتي سمعها محمد (ﷺ) بصحبة صديقه أبو بكر فطلب منه مرة أن يعيد عليه ما سمعه من الأسقف، وهو ما يرى فيه درمنغم "شبهاً جالباً للنظر بينها وبين بعض سور القرآن"[٤].

وبعد هذه التفاصيل، يستعرض أسباب حرب الفجار وتسميتها وبعض تفاصيل المعارك والمنتصر فيها، وطريقة إنتهائها، مشيراً الى مشاركة النبي عليه السلام مع أعمامه فيها.

يعترف درمنغم بأن السيدة خديجة رضي الله عنها، الأسدية القريشية الأيم، هي من اختار محمداً عليه السلام زوجاً لها وذلك لتمام خلقه وأخلاقه، فهو طاهر القلب وهو الذي ابتعد عن الخطيئة على عكس أقرانه الشباب، وله من الحكمة ما جعل سادة قريش يحتكمون اليه لفض نزاعهم حول من يضع الحجر في الكعبة بعد ترميمها. وبعد أن يستعرض بنات وأبناء الرسول عليه السلام من خديجة رضي الله عنها، ووصف الكعبة من الداخل والخارج دون أن يتقيد بالسرد الزمني التاريخي، يقفز درمنغم إلى مسألة تبدو مهمة في نظره، وقد تكون محاولة لإدخال بعض من آراء المستشرقين حول زوجات النبي عليه السلام، فيقول: "فهذا الرجل الذي سيكون هوى النساء، شديد عنده، لا يكاد يكتفي باثنتي عشر امرأة عند بلوغه الستين من عمره"[٥]، ليصل إلى

---

(١) سورة الشرح، الآية ١-٣.
(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٥٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٤.
(٤) المصدر السابق، ص٥٥.
(٥) درمنغم، حياة محمد، ص٦٩.

موضوع متمم لموضوع السيدة خديجة رضي الله عنها، وهو بداية البعثة النبوية الشريفة، كما سنلاحظ في الفصول التالية.

المحور الثالث: بعثة الرسول (ﷺ) حتى هجرته من مكة

بأسلوبه القصصي الطريف والممتع، يستمر درمنغم في سرد أحداث السيرة بتفصيل، معيداً الإضطراب النفسي الذي يعتمل في صدر الرسول عليه السلام، الى انقطاعه بحثاً عن حقيقة الخلق، حتى أضحى لا يفرّق جيداً بين تعاقب الليل والنهار وبين اليقظة والمنام"[١]، إلى أن جاء جبريل عليه السلام وكان النبي عليه السلام نائماً فقال: "إقرأ، فرد محمد، ما أنا بقارئ، فانقضّ عليه ذلك الشخص، فشده، فجعل ذلك النمط في عنقه وغته حتى ظن أنه الموت ثم أرسله"[٢]، وكرر ذلك ثلاثاً، فقال محمد: "ماذا أقرأ"[٣].

وهنا يظهر درمنغم دور السيدة خديجة رضي الله عنها، ليس كزوجة مؤمنة بزوجها وحنونة عليه وحسب، وإنما كوسيط بينه وبين ابن عمها ورقة بن نوفل الذي أخبرها أن الذي ينزل على محمد عليه السلام هو الناموس، والمقصود ملك الوحي جبريل، مغلّفاً هذه المنهجية الإنتقائية لأحداث السيرة بتتبع نزول الوحي على النبي عليه السلام، وموروداً الآيات التي نزلت في بدء الوحي، وأوائل المؤمنين به وهم خديجة وعلي وأبو بكر رضي الله عنهم، ومرحلة الدعوة السرية التي استمرت ثلاث سنوات.

وفي فصل لاحق، يتحدث درمنغم عن مرحلة الدعوة العلنية والآيات التي تحض عليها، وردة فعل قريش التي بالغت في أذية المسلمين الضعفاء، ومحاولاتها إغراء الرسول للرجوع عن دعوته، وموقفه الذي تعقد أكثر بعد تسفيه آلهة قريش، وبدء اتصاله بالقبائل والهجرة الأولى إلى الحبشة، مسهباً في الحديث عن بعض الشخصيات التي كان لها دور بارز في هذه المرحلة.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٣) أورد درمنغم قصة نزول الوحي على النبي (ﷺ) معتمداً على ما جاء في كتب السيرة النبوية، كسيرة ابن هشام، لكنه لم يورد تتمة النص (ما أقول ذلك إلا اقتداء منه أن يعود إلى بمثل ما صنع بي) والذي فسر بأنه محاولة للتخلص مما كان يفعل به. انظر: السهيلي، أبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد أبي الحسن الجشعمي، (ت ٥٨١هـ)، الروض الأنف [شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٩٧١] ج١، ص٢٦٩.
وعبارة (ما أقرأ) تعني عدم معرفة القراءة لأنه (ما) هنا نافية للقراءة وليست استفهامية. انظر: ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين اسماعيل الدمشقي، (ت ٧٧٤هـ) البداية والنهاية [ط١، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦] ج٣، ص٧.

ينحو درمنغم في هذا الجزء منحاً فلسفياً في حديثه عن الخير والشر، ودوافعهما في النفس الإنسانية في كل زمان ومكان، مستعرضاً بعض المقارنات بين "الفرّيسيين الذين ناهضوا المسيح، وقريش التي اضطهدت محمد"[١] عليه السلام، موضحاً أنه "لم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للمؤمنين ولمحمد"[٢] عليه السلام، مستر سلاً في ذكر العديد من الآيات التي تصف يوم الحساب والعقاب والنار والجنة، وتساءل عن إنكار قريش لفكرة البعث التي لا تعتبر اصعب من فكرة الخلق[٣]، فيعتبرهم غير مقدرين تلك المنّة "إذ أرسل إليهم (أي العرب) نبياً منهم يحكي بلسانهم فيساويهم بغيرهم من الكتابيين"[٤].

إسلام حمزة وعمر

يعود درمنغم، وبانتقائيته المعروفة للأحداث التاريخية، ليتحدث عن إسلام حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع تأشير سمات شخصية كل منهما وأثرهما على الدعوة الإسلامية.

كما يوجز قصة الصحيفة التي تعاهدت قريش فيها على مقاطعة الرسول عليه السلام وبني هاشم في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات، وأثر وفاة أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنهم في العام نفسه الذي سمي بعام الحزن حيث يستمر الرسول رغم آلامه وأحزانه في بث دعوته وزيارته الى الطائف وما لاقاه من بني ثقيف.

ويضمّن هذا المحور رأيه في موضوع الإسراء والمعراج حيث يقول: "وقد اختلف في مسألة وقوع الإسراء والمعراج، بالجسد والروح أو بالروح وحدها، ويبدو أن ما دار من الجدل لا يعدو حد اللغو ما دمنا لا نرى للمعراج ما يمتاز به من رؤى الذبي والأولياء التي صحت روايتها والتي لم تصح، والمهم في أمر المعراج هو اتخاذه أساساً لتأملات كثيرة من متصوفي الإسلام الروحية"[٥]، كما يورد أعلاه الرسول لخبر إسرائه ومعراجه، وكيف صدقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والذي لأجله لُقِّب بالصديق[٦].

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٥
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٧.
(٥) درمنغم، حياة محمد، ص١٥٥.
(٦) المصدر نفسه، ص١٥٧.

الهجرة (٦٢٢م)

بدأ هذا الجزء من الكتاب بحديث نبوي شريف إستقاهُ من صحيح البخاري وأردفه بنص من إنجيل لوقا، ينطويان على المضمون نفسه من حيث كون الأجر عند الله بحسب النوايا، وقدر الأعمال، ويقصد بهذه المقدمة أهل بيعة الرجال، بيعة العقبة الثانية التي تحدث عن تفاصيلها.

يسرد درمنغم بعدها قصة هجرة النبي إلى المدينة، معرّجاً على حكاية سراقه، ومبيّناً موقفه من معجزات الغار الثلاث وهي "نسيج عنكبوت، وغرام حمامة، ونمو شجرة، وهي خوارق ثلاث نجد لها نظائر في أرض الله كل يوم"(١) ويعتبرها الوحيدة في التاريخ سلامي.

المحور الرابع: النصرانية والإسلام

يفصح درمنغم في هذا الفصل عن دعوته الى التقارب بين المسيحية والإسلام، ويعتبر أنه يمكن أن تسود بين الفريقين روح المحبة والسلام التي دعا إليها كل من المسيح ومحمد عليهما سلام الله.

ويعتبر "أن محمداً دعا قومه إلى التوحيد، كما وخاطبهم بكتاب عربي ملائم لما في التوراة والزبور والإنجيل، مستشهداً في الغالب بما في هذه الكتب المنزلة كما لو كان نصرانياً ذاكراً أنه واحد من الأنبياء"(٢).

ويفرد فقرات عدة ليثبت من خلالها أوجه الشبه بين الإسلام والنصرانية "الصحيحة"(٣)، "وأن محمداً مُني بالكثير من الشبهات من الغرب الذي كان سباقاً إلى إحداث الخلاف مع المسلمين"(٤)، إلا "أن النصرانية تشتمل على الإسلام وتضيف إليه بعض الشيء وأنه لا تناقض بينهما"(٥).

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٦٩: لم يكتف درمنغم بالإشارة إلى محدودية المعجزات التي رافقت بعثة النبي محمد، بل قلل من أهميتها باعتبار وجود نظائر لها في أرض الله كل يوم. وفي هذه الحال، يتجاهل درمنغم أن حياة النبي سجل حافل بالخوارق التي صاحبت مقدمه عليه السلام لا بل قبل أن تحمل به أمه وما رافق حملها من بشائر ونبوءات وما صاحبه عند ولادته وطفولته حتى قبل مبعثه وما بعده. فما من خارقة أيد الله بها نبياً إلا أيد محمد عليه السلام بأعظم منها.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٤) المصدر نفسه ص١٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص١٤٣.

لكن درمنغم يعزف في هذا المحور على الأوتار نفسها التي عزف عليها العديد من المستشرقين حول تأثر محمد بالنصرانية، إذ يستعرض المؤلف وبتفصيل موضوع تواجد النصرانية كأشخاص في مكة والجزيرة من خلال استعراضه للقبائل المتنصرة، وبعض الأسماء المعروفة التي خدمت في بيوتات قرشية لم يخلُ أي منها من خادم نصراني، مشيراً إلى علاقة محمد (ﷺ) بالبعض منهم، ما يوحي بتأثير النصرانية في النبي كإطار لدعوى تفيد بأن رسالة محمد هي ما تعلمه من النصرانية المنتشرة في كل الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام.

المحور الخامس: المدينة ومعارك الإسلام الأولى

يثرب أو المدينة، مكان استقرار النبي والمؤمنين به، وهو حيث نظم فيها أمور دولته على أسس مدنية جديدة، وهذا "ما لم يصنعه مثله مؤسسو الديانات إلا نادراً"[١].

كان محمد نبياً وقائداً وسياسياً في آن واحد، عاهد اليهود على حمايتهم والعرب الذين لم يدخلوا في الإسلام، آخى بين المهاجرين والأنصار الذين ابدوا من حسن الضيافة والكرم الشيء الكثير.

وصف درمنغم تقشف المهاجرين وعملهم بالزراعة والتجارة، تخفيفاً منهم عن كاهل الأنصار.

وفي الوقت الذي يتحدث فيه عن أخلاق الذبي "الذي لم يكن طماعاً ولا صلفاً بل رحيماً متواضعاً محباً للأطفال رفيقاً بخدمه، حليماً حكيماً في فض المنازعات التي تعرض عليه"[٢]، نجده مضيفاً مقتنيات الرسول عليه السلام من الهدايا الثمينة التي تلقاها من الملوك، وخاصة ذلك "الثوب الذي تعادل قيمته ثلاثمائة جمل"[٣].

غزوة بدر

يرفض النبي العنف إذا كان تأييداً لظلم أو شفاءً لحقد.

أما الجهاد فبذرته موجودة في ذهن النبي (ﷺ) منذ بيعة العقبة الثانية، والحرب وسيلة وحيدة لإنقاذ المسلمين، "لقد لاقوا أذى كبيراً من قريش وكانت سبباً في هجر ديارهم وأموالهم وتعذيبهم"[٤].

يعرف درمنغم بأن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما أشيع، حيث "لا إكراه في الدين" وأن القرآن يرسي أسلوب تعامل الذبي وأصحابه في المغازي. وحين يعقد

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٤.

مقارنة بين أول شهيد[1] نصراني (القديس إتيان) وأول شهيد في الإسلام (خبيب بن عدي)، يعتبر الأول أكثر تسامحاً، كما يسهب في الحديث عن المغانم التي كانت سبباً لجهاد بعض المسلمين، إلا أن الرسول (ﷺ) نظمها بحسب ما أمره الله.

و يأتي الحديث عن معركة بدر، بدءاً من ظروفها ومجرياتها واستعدادات الطرفين لها، وتفاصيل ما دار خلالها، كاشفاً عن عمق إيمان النبي وأصحابه بالله الواحد الأحد، وكذلك سلوك النبي مع الأسرى، ليصل إلى القول بتزامن نصر المسلمين في بدر على قريش مع نصر الروم على الفرس (كما أخبره القرآن) [2].

مكة تستعد للثأر

حزن قريش كان كبيراً، فقد خسرت المعركة في بدر، وفقدت العديد من أشرافها قتلى، فتولى أبو سفيان مهمة إعدادها للثأر.

بعث العباس (عم النبي) برسالة إلى محمد عليه السلام يخبره فيها بما تنويه قريش، فاستعد الطرفان، ووقعت معركة أحد التي انهزم فيها المسلمون نتيجة عدم التزام الرماة الذين تلقوا أمراً بالثبات في مكان معين.

يعزف درمنغم على وتر الغنائم مرة أخرى[3]، و هي التي كانت سبباً في خسارة معركة أحد، كما يلمح إلى استخدام الخمر كعامل مساعد على ثبات المسلمين "حيث أنها لم تكن قد حُرّمت بعد[4].

الخندق

استعدت قريش مجدداً بعشرة آلاف مقاتل بالتحالف مع بعض القبائل، لاحتلال مدينة النبي، فتحصن المسلمون وراء الخندق الذي حفروه حول المدينة، وأبانوا قدراً عالياً من الصمود والشجاعة، الأمر الذي أعيا المشركين، فجاءتهم ريح عاتية قضت على آمالهم باحتلال المدينة، ودحرتهم وانتصر المسلمون.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٩٥.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٢١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

اليهود

يروي درمنغم الأحداث التي جرت بين النبي محمد (ﷺ) وبين اليهود في أكثر من فصل، وذلك بأسلوب قصصي مثير للعطف والشفقة، فتراه يعدد مساوئ اليهود بأسلوب يبدو لك بأنها أعمال عادية لا تستوجب ما جرى لهم على أيدي المسلمين من تهجير وقتل وغيره.

يعتبر بأن القرن السادس الميلادي هو قرن الشعراء العباقرة الذين تجلت في قصائدهم الروح اليهودية والنصرانية[١]، ما هيأ النفوس لتقبل الإسلام. وعلى الرغم من معاهدة النبي لليهود بعد استقراره في المدينة وحرصه على أن يكونوا موالين له باعتبارهم أصحاب كتاب، إلا أنهم أظهروا استياء من انتصار المسلمين في بدر، ورثى كعب بن الأشرف – وهو من زعمائهم، قتلى قريش، وجهر اليهود بكرههم للإسلام[٢].

وهكذا كانت المعركة الأولى في حصار "بني قينقاع" بسبب مقتل أحد المسلمين الذين تحوّلوا بعدها عن القدس إلى الكعبة قبلتهم الجديدة[٣].

وفي أعقاب خسارة معركة أحد، وقعت معركة مع اليهود الذين راحوا يدسّون على الإسلام وظهر منهم ما يدل على خيانتهم للعهود مع النبي، فكان حصار "بني النضير" وإجلائهم عن المدينة.

ويبدو أن درمنغم لا يرى في الخيانة أمراً يستوجب العقاب، حيث يعتبر بأن المسلمين يتلذذون بسفك الدماء والقتل[٤] خلال تعاملهم مع خيانة بني قريضة للنبي والمسلمين في معركة الخندق حيث ترك الرسول أمر الحكم عليهم لحليفهم (سعد بن معاذ)، فأمر الأخير بقتل الرجال منهم وسبي النساء وغنم أموالهم.

وكان أن تجمع بعض من يهود بني نضير وغيرهم في آخر معقل لليهود في واحة خيبر التي فتحها المسلمون بعد صلح الحديبية وغنموا فيها غنماً كبيراً وانتهت معها مشاكل المسلمين مع اليهود في الجزيرة العربية.

المحور السادس: زوجات النبي (ﷺ)

خصص درمنغم فصلاً بعنوان "زينب" والمقصود بها زينب بنت جحش رضي الله عنها والتي ركز على دخول الرسول (ﷺ) بها كثيراً، في محاولة لتضخيم التفسير الجنسي في تاريخ السيرة النبوية، ومستهلاً هذا الزواج بأطروحة زوجات النبي عليه

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

السلام، حيث يقول: "شعر محمد في العقد الأخير من عمره بميل كبير للنساء. بلغ محمد عليه السلام المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب، فأقام لنفسه بيتاً كبيوت سادات العرب وأبرم عقود نكاح كثيرة، عن حب وعن سياسة فضلاً عن عدم زهده في سراري جميلات عرضن عليه هدية أو نالهن سبياً"[١].

ثم ينتقل المؤلف من زواج الرسول عليه السلام بزينب رضي الله عنها إلى موضوع خطير يتفق وهذا التفسير، فقد جعل حادثة الإفك ميداناً لحشره (أي هذا التفسير) من خلال قصة عائشة رضي الله عنها وفقدانها للعقد في طريق العودة من غزوة بني المصطلق، متحدثاً عن حزن النبي الشديد الذي لم يزل إلا بنزول الآية التي برأت عائشة مما اتهمت به.

ويردف درمنغم هاتين الفكرتين، كلاً منهما بفصل منفرد عن الحريم، بدلاً من زيجات الرسول عليه السلام، مبرزاً فكرة الحريم التي أطلقها المستشرقون والباحثون الأجانب عن حريم الخلفاء، بمعنى تعدد الجواري وتعدد الزوجات.

هنا يبدو بأن المؤلف اعتبر ان هذا الموضوع يحتل مركزا متقدما في قائمة إهتمامات النبي، فأتى على ذكر زوجاته جميعهن تقريباً، وسبب وظروف زواجه من كل منهن، وتفاصيل عن حياة النبي عليه السلام الأسرية في إثارة بالغة الدلالة على تأثير النساء في حياة الرسول (ﷺ)، ليختم مبحثه بطرح رأي غير قاطع بخصوص تعدد الزوجات على الرغم من حسناته والقيود التي فرضها فيه الإسلام، وما نالته المرأة مع مجيء الإسلام من مكانة متميزة في المجتمع، إلا أنه يود "لو لم يجعل النبي من نفسه المثل في أمر تعدد الزوجات"[٢].

المحور السابع: رسول الله - النصر - حجة الوداع - الوفاة

يتعرض درمنغم إلى سبب ظهور الإسلام، ديناً كغيره من الأديان السابقة المنزلة، مستعرضاً العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة الرسول "الأمي التقي الفطري الكامل الطليق"[٣]، معتبراً القرآن معجزة الإسلام الذي تحدى به محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله.

وما يسجل لدرمنغم في هذا المجال رفضه فكرة الصرع التي اتهم بها الرسول من بعض المستشرقين أو حتى المرض حيث يقول: "والحق أن محمداً كان مبرأ من مثل هذه الأمراض"[٤]، وأن محمداً ابعد ما يكون عن أن يؤلف هذا القرآن الذي

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٩١.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٣.
(٣) درمنغم، حياة محمد، ص٢٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٥.

اختير له نص رسمي بعد وفاته بسبعين سنة[١]حيث يلمح إلى إمكانية الشك بتحريفه قائلاً: "وفي القرآن حشر للآيات في غير موضعها غير قليل.. وكيف يعرف في القرآن وجود تحريف حواش وحذف وإلى أي حد؟"[٢].

ثم يتحدث عن آداب الإسلام وتعاليمه ذات الأثر العظيم في حياة العرب، وتقدم الأسرة والمجتمع الإسلامي بشكل عملي، بالإضافة لما فيه من تعاليم ومبادئ آخروية عبرت عنها العبادات التي فرضت على المسلمين "لتوثيق أواصر المجتمع وزرع التقوى في القلوب"[٣].

لذا ومع كل ما سطره درمنغم من أفكار وتفسيرات، كان لا بد له أن يعترف بانتصار الإسلام، فكان الفصل المعنون (بالنصر) في رأينا تهديماً مطلقاً لكل ما حاول إظهاره من عوامل الإنحلال في سيرة النبي والدولة العربية الإسلامية، حيث تحدث فيه عن فتح مكة وتحطيم أوثانها، وإسلام العديد من الشخصيات المهمة من العرب، وردود بعض ملوك ذلك الزمان على رسائل النبي إليهم، والتي كان منها الإيجابي ومنها السلبي.

ووصف في فصل آخر (حجة الوداع) الدور التاريخي الذي التصق بالعرب بعد أن بات لهم مبدأ واحد وأصبحوا من القوة والسيادة بأن صار لهم شأن كبير وهم كانوا أهلاً لهذا الشأن.

ويختم درمنغم كتابه بوصف حال النبي (ﷺ) في أواخر لحظاته وشدة معاناته من المرض إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

استعراض موجز لمحاور كتاب درمنغم

يمتاز كتاب درمنغم (حياة محمد) بغنى المعلومات والأخبار المفصلة، والوصف الشامل للأماكن والأشخاص والمواقف التي تعرض لها الكاتب.

وعلى الرغم من عنونة فصول كتابه بحسب الموضوعات التي تطرق لها، إلا أنه تضمن تفاصيلاً لموضوعات أخرى غير مشمولة بالعناوين.

ومع إقراره بنبوة محمد (ﷺ) ورفضه لافتراءات وأكاذيب بعض المستشرقين الآخرين الذين كتبوا في السيرة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى موقفه الرافض لإجبار عرب المغرب على اعتناق المسيحية بالإكراه، على عكس سياسة بلاده، ولد لدى مجموعة من الكتاب العرب إنطباع إيجابي عن درمنغم دفعهم الى الإشادة به وبكتابه (حياة محمد).

في الواقع، جهد درمنغم نفسه معتمداً على مصادر عربية إسلامية وبالأخص مؤلفات السيرة النبوية لتصوير حياة النبي محمد (ﷺ) بأسلوب لا يخلو من الأدب الذي يتخلله عنصر الخيال الملحمي.

يُعتبر من بين المستشرقين المتميزين بهذا الأسلوب وذلك على حساب المنهج العلمي في دراسة التاريخ.

جاء في كتابه الغث والسمين من الآراء المبنية على أحداث ومعلومات مجتزأة ومنتقاة من تاريخنا العربي الإسلامي، وهو سعى بالفعل إلى رسم شخصية للرسول الكريم يقدمها الى القارئ الفرنسي العادي وربما المثقف على صيغة مسرحية بطلها محمد (ﷺ).

وبذلك، وتحقيقاً للعرض المركز لهذه الأفكار، نرصد أهم الموضوعات التي تطرق لها الكاتب:

أولاً: يعتقد درمنغم أن الاختلاف بين الإسلام والنصرانية الحقيقية ينحصر في الموقف من موضوع صلب المسيح (عليه السلام)، ويعتقد أن الآية القرآنية محل الخلاف لا تكفي لإقامة حاجز بين الإسلام والنصرانية، مضيفاً أن ثمة آيات أخرى تناقض هذه الآية الغريبة بحسب رأيه. كما يلمح إلى أن القرآن كتب بعد سبعين عاماً من وفاة الرسول، وكان خالياً من الحركات والتشكيل، بمعنى إمكانية التلاوة على أوجه مختلفة، بالإضافة إلى أن الخليفة عثمان، لدى جمعه القرآن، أتلف كل النسخ ما عدا واحدة هي الباقية حتى اليوم، وعلى هذا الأساس يطلق دعوته للتقريب بين الإسلام والمسيحية لما يرى فيه تشابهاً كبيراً بينهما.

ثانياً: يعترف أن القرآن ليس من صنيعة محمد (ﷺ) إلا أنه يرى بأن هناك حشراً لآيات في غير موضعها، ويخلص إلى القول إن نصوص القرآن صحيحة على الرغم من اختلاط آياته.

ثالثاً: يتحدث عن النبي (ﷺ) وكأنه فرد عادي، خاضع للرغبات والشهوات والغرائز، واصفاً حقيقة يرددها و هي أن الله تعالى اختاره من بين الناس، في حين يغفل عصمة الأنبياء في مواقف عدة، ويعتبر أن محمداً (ﷺ) وإن كان قد أخطأ، إلا أنه لا يكذب. كما رفض فكرة إصابة النبي بالصرع.

رابعاً: تكاد لا تخلو صفحات كتابه من أفكار يربط فيها بين النصرانية والإسلام، سواء كان باستشهاداته بالقساوسة والرهبان والكنائس أم الأفكار والمبادئ، ويرمي من خلالها إلى التأكيد بأنه لا مراء في أن للنصرانية أثراً في محمد عليه السلام.

خامساً: يصف العرب بالسذّج والفوضويين ويعتبر أن للغنائم النصيب الأوفر في جهادهم وكذلك إسلامهم، وأن شجاعتهم تتجلى الى حد الإستماتة في سبيلها، وأن مغازي الرسول شبيهة بعادات الغزو عند العرب في الجاهلية.

سادساً: شكل موضوع الزوجات محوراً أساسياً في نظرته الى الحياة الخاصة للرسول عليه السلام. فقد صوّر انشغال النبي بنسائه بما لا يليق بمن أسس دولة عقائدية غيرت مجرى التاريخ الإنساني، في الوقت نفسه الذي يطرح فيه تساؤله: أليس تعدد الزوجات الشرعي أفضل من تعدد الزوجات السري؟.

سابعاً: أظهر في غير موضع من كتابه تعاطفاً ملحوظاً مع اليهود الذين صوّر تآمرهم على النبي (ﷺ) والإسلام وخياناتهم ونقضهم للعهود والمواثيق ودسائسهم ومحاولاتهم قتل النبي عليه السلام. دون مستوى رد فعل المسلمين عليهم، بما ألحقوه بهم من قتل وتهجير وسبي، حيث كان يكتفي بإشارة بسيطة إلى أفعالهم، في حين يسهب في شرح وتفصيل رد الفعل الإسلامي عليهم.

ثامناً: شكك في إسلام العديد من أصحاب النبي، فتعرض إلى أصولهم وأنسابهم معتبراً أن العديد منهم إنما كان إسلامه من باب محاباة الرسول عليه السلام الذي مثل القوة والسلطة، واصفاً البعض منهم بالقتلة أو الطامعين بالخلافة أو بالتابعين السذج.

الخلاصة

يلاحظ من خلال استعراض الكتابات الإستشراقية الفرنسية في السيرة النبوية اختلاف واضح في النظرة الى شخصية الرسول (ﷺ)، تراوح بين الإيمان به كرسول يوحى إليه من رب العالمين، وبين الرفض لشخصه ورسالته.

منهم من اتبع بعض هذه الأفكار الجاهزة عن سيرة الرسول (ﷺ) والمتوارثة من مؤرخي العصور الأوروبية الوسطى والتي كانت مدفوعة أولاً وبالدرجة الأساس للدس وإثارة الضغينة ضد الإسلام ونبيه، فجاءت تفسيرات بعيدة عن الحقيقة.

في المقابل، كانت هناك كتابات لا يمكن أن نقلل من أهمية الجهود التي بذلت فيها ومن أصالتها وقيمتها العلمية، وقد مثلت اتجاهين يتفقان في النظرة الإيجابية الى الرسول (ﷺ) كمصلح إجتماعي وعبقري متميز وبطل سياسي، الا انهما يختلفان في موضوع نبوّته، فمنهم من اعترف به نبياً مرسلاً من رب العالمين للبشرية كافة، الى الحد الذي اعتنق معه بعضهم الإسلام ديناً.

كما يلاحظ أن هذه الكتابات لم تلتزم خطاً مباشراً مستقيماً في عملية النقد التاريخي المحايد.

إن مرور الزمن والجهد والجدية في التعمق والتحليل الذي بذله البعض منهم للوصول إلى الأحكام العامة، ومحاولات استخدام منهج البحث وأدواته في الدراسات التاريخية، فضلاً عن التخصص الدقيق في الأديان والسلالات، والحصول على المخطوطات الأصيلة ودراستها، كل ذلك جعل المؤلفات في موضوع السيرة النبوية تأخذ شكلاً جديداً اختلف فيها أسلوب التعبير عمّا كان عليه في القرون الوسطى، كما جعل هذه المؤلفات غنية بالمعلومات والتفصيلات عن التاريخ الإسلامي.

إلا أن اتباع المنهج العلمي لا يعني بالضرورة أن تكون هذه النتاجات منصفة ونزيهة، كما لا يعني أنه لا يمكن جمع الحالتين، بل بالعكس إذ ان العلمية والنزاهة قد تجتمعان في باحث وتفترقان عند آخر، وأكثر من ذلك قد تجتمعان وتفترقان عند باحث واحد من زمن إلى آخر.

وهذا لا يعني أن نطالب المستشرقين جميعهم بأن يكتبوا ما نراه نحن صحيحاً وحقيقياً، خصوصاً إذا وضح حسن النية لأننا لا يمكن أن نجرد النفس البشرية من

المؤثرات الخاصة والعواطف•، كما أن الفهم الدقيق لأسرار اللغة العربية كان في كثير من الأحيان حائلاً دون وصول الكثير من المستشرقين الى تفسير دقيق للكثير من القضايا أو سبباً في الكثير من الأخطاء التي وقعوا فيها [١].

يقول كلود كاهن[٢]: "إن سيرة النبي (ﷺ) التي اتبعها المستشرقون أثارت فينا شيئاً من الإرتباك تبعاً لعقيدتنا".

هذا يعني أن الكتابة في موضوع السيرة تأثر بهذا الإرتباك في تفسير أحداث وقعت منذ قرون في بيئة اتسمت بظروفها الجغرافية والاجتماعية والعقائدية المختلفة. وقد أسقطوا تأثيرات البيئة المعاصرة على الوقائع التاريخية[٣].

كما انتقد اتيان دينيه[٤] كتابات بعض المستشرقين التي تناولت سيرة الذبي (ﷺ) "التي لم تتمكن من التخلص من نزعة الأحكام المسبقة"، موضحاً أن الكثير من المستشرقين الذين يؤرخون في موضوع السيرة، يحاولون أن يؤيدوا آراءهم بهدم بعض الأخبار وبناء أخبار تقوم مقام ما هدموا، فتكون النتيجة صورة مشوهة للذبي (ﷺ) حتى يخيل إلينا أننا نسمع محمد (ﷺ) في مؤلفاتهم، وكأنه يتحدث باللغة الألمانية أو الإنكليزية أو الفرنسية، ولا نتمثله قط بهذه العقلية والطباع التي ألصقوها بالنبي (ﷺ).

وأرجع أيضاً أسباب ذلك الخطأ الفادح بالمنهاج إلى جهلهم بالكثير من العوامل المهمة "كالزمن والبيئة والعادات والأهم من ذلك كله عدم قدرتهم على إدراك تلك القوى الباطنية التي لا تقع تحت مقاييس المعقول"[٥].

وفوق كل ذلك، حاول بعضهم تفسير أحداث السيرة من خلال قوالب أيديولوجية وفكرية، أو دوافع سياسية واستعمارية، ولذلك تمحورت كتاباتهم في زاوية ضيقة من اللاموضوعية.

أما المؤرخون والكتاب العرب المسلمين، فقد اختلفت آراؤهم حول الكتابات الإستشراقية الفرنسية للسيرة النبوية، فمنهم من رأى الفرنسيين أشد المستشرقين تعصباً ضد الإسلام ورسوله، "حيث من النادر أن نقرأ شيئاً طيباً عن حياة الرسول

• كانت هذه ملاحظة للمستشرق الفرنسي أدوارد ميتوتييه خلال مقابلة مع الباحثة في بغداد، آذار ٢٠٠١.

(١) حسن، محمد عبدالغني، الإسلام بين الإنصاف والجحود، ص٩.

(٢) كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص١٨.

(٣) النمر، عبدالمنعم، الثقافة اسلامية بين الغزو والإستغزاء،[دار المعارف، مصر، ١٩٧٧] ص٧٨.

(٤) دينييه، محمد رسول الله، ص٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٣، انظر كذلك: محمود، عبدالحليم، أوروبا والإسلام [العصرية، لبنان، بلا] ص١٠٦.

لمستشرق فرنسي، ولو وجدت شيئاً طيباً فإن لسانه لا يطيعه في كتابته وإن قال تراه يتحفظ في قوله تحفظاً بالغاً حتى يخيل إليك أنه يخشى الوقوع في النار"[1]، وثمة رأي آخر يجد أن هناك الكثير من الإيجابية والعلمية في كتابات العديد من المستشرقين الفرنسيين[2].

(١) حمدان، نذير، الرسول في كتابات المستشرقين، ص٣٧. انظر كذلك: جبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٥، كذلك: البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي [ط٩، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨١]ص٥٥.

(٢) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٣، ص١١٥.

الفصل الرابع

{مناقشة آراء المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بالاعتماد على مؤلفات السيرة النبوية الشريفة}

المبحث الأول: {الوحي}

المبحث الثاني: {ادعاء الأثر النصراني في النبي عليه السلام}

المبحث الثالث: {علاقة النبي ﷺ باليهود}

المبحث الرابع: {النبي عليه السلام وتعدد الزيجات}

الفصل الرابع

مناقشة آراء المستشرقين الفرنسيين وتفسيراتهم بالاعتماد على مؤلفات السيرة النبوية الشريفة

في هذا المبحث، نسعى بعون الله إلى محاورة الأفكار والتفسيرات الإستشراقية عامة والفرنسية على وجه الخصوص، لاسيما في المحاور التي تمثل قاسماً مشتركاً وساد اتفاق حولها، وهي:

١- الوحي.
٢- الأثر الديني النصراني في النبي عليه السلام.
٣- علاقة النبي (ﷺ) باليهود.
٤- النبي عليه السلام وتعدد الزوجات.

وعلى الرغم من أهمية الجهود التي تبذل، وعلى المستويات كافة، الفكرية على وجه الخصوص منها خاصة، للدفاع عن الرسول الكريم (ﷺ) وسيرته الشريفة ضد كل الإفتراءات والزيف والتشويه، فإنها ستبقى قاصرة أمام عناية الله سبحانه وتعالى لرسوله، عليه السلام حيث يقول له في كتابه العزيز وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس (٦٧) [١].

(١) سورة المائدة، آية ٦٧.

المبحث الأول

موضوع الوحي

نظر المستشرقون إلى موضوع الوحي نظرة تنم عن الشك بشكل عام، فمنهم من عدّ نزول الوحي• محض كذب وادعاء، ومنهم من فسر الوحي أو ما كان يراه النبي عليه السلام ويسمعه في حقيقته لا يتعدى كونه حالة نفسية عكستها ضغوط إجتماعية ونفسية عاشها النبي (ﷺ) جراء يتمه المبكر.

كما يرى المستشرقون أن هناك أناساً يعتقدون بصدق أنهم يتلقون رسائل سمعية وبصرية عقلية من العالم الآخر[١]، اعتبروها حالات من الهوس تنال عظماء من الناس[٢].

ووفق هذا المنظور، توجه الإستشراق عموماً إلى مناقشة وتفسير الوسيلة التي كان الله سبحانه وتعالى يتصل من خلالها حامل رسالته محمد عليه السلام.

و تذكرنا هذه المواقف للمستشرقين بمواقف تاريخية وقعت في مكة، بداية الدعوة الإسلامية حينما وقفت قريش موقفاً متطرفاً من الرسول (ﷺ) فاتهمته بالسحر والكهانة والجنون بعد أن كانوا شهدوا له برجاحة العقل والاتزان ووصفوه بالصادق الأمين[٣].

وقد ردّ عليهم القرآن الكريم في سورة النجم: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾.

• في ترجمة سفاري (Savary) للقرآن (١٧٨٣م) وصف النبي بأنه لم يكن يستضيء بوحي الهي. انظر: فرج، السيد احمد، الإستشراق، النشأة، الذرائع، المحتوى، ص١٢٦.

(١) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج٣، ص١١٧.

(٢) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ص١١٤.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ/٨٣٣م) سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، [مطبعة المدني، القاهرة] ج١، ص١٢٧.

منح علماء اللغة العرب تحديدات عدة لمعنى الوحي:

- "الإشارة، الكتابة، والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك، والصوت يكون في الناس وغيرهم كالوحي والوحاة"[١].
- يضيف ابن منظور إلى ذلك قوله: وحي وحياً وأوحى، أي كتب وقد يراد بها ما يكتب على الحجارة وينقش عليها[٢]. والوحي على وزن فعيل السريع يقال موتٌ وحيٌ[٣].
- "إعلام الله تعالى أنبياءه إما بكتاب أو برسالة ملك في منام أو إلهام بأن يذفث في روع النبي ما يريد الله بلاغه له"[٤].

وإذا رجعنا إلى كتب الديانات التوحيدية، كالعهد القديم على سبيل المثال، نجد بأن الرؤية، الوحي، قد يرد ذكرها في التوراة على أنها كلام الله، حيث تتردد عبارة "أن الرب كلم موسى".

وفي سفر حزقيال، تترد عبارة "كان إلى كلام الرب قائلاً"[٥]، وأن أنبياء بني إسرائيل يتلقون الوحي "إما من الله مباشرة، أو عن طريق رجل الرب أو عن طريق الرؤيا"[٦].

وفي الإنجيل، يظهر الوحي الإلهي على أنه كلام أو كلمة عيسى عليه السلام، فما سمعه الحواريون من السيد المسيح هو الوحي من الله ثابت في نصه وحروفه[٧].

ولتأكيد مسألة الوحي واختيار العناية الإلهية لمحمد بن عبدالله (ﷺ) نبياً ومبشراً، سنحاول تتبع الكيفية التي جاء فيها الوحي بالاعتماد على المصادر الأصيلة لكتب السيرة، وهي المصادر ذاتها التي استقى المستشرقون منها مادتهم العلمية عن هذا الموضع وذلك في سبيل الرد على التفسيرات الواهنة لكل مستشرق أو مستغرب عن العقيدة السمحة.

---

(١) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب، (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، القاموس الوسيط، [دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م] ج٣، ص٣٩٩.

(٢) لسان العرب، ج١٥، (مادة وحي)، ص٣٧٩.

(٣) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م) مختار الصحاح، [المركز العربي، بيروت، بلا] ج١، ص٢٧٩.

(٤) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص٧١.

(٥) العهد القديم، سفر حزقيال، الإصحاح السادس، ص١١٨٢.

(٦) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص٧٢.

(٧) صالح، سلوى الحاج، المسيحية العربية وتطوراتها، [ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨]ص٣٨.

ورد تعبير الوحي في القرآن الكريم بصيغ عدة منها "أوحينا – نوحي – يوحي" في ٧٨ آية. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (٣). وقد جاءت هذه الآية تأكيداً لأمر الوحي للأنبياء لأن الوحي يستعمل أيضاً في الإلهام كما يكون لغير الأنبياء(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (٦).

اما ما جاء في كتب السيرة والحديث الشريف، فقد أورد البخاري (ت٢٥٦ هـ) ما يلي: "ابتدأ ببيان بدء الوحي وقدمه على الإيمان لأن الاعتماد على جميع ما سيذكره في الصحيح يتوقف على كونه (ﷺ) نبياً أوحي إليه، والإيمان به إنما يجب لذلك"(٧)، وعليه فإن الوحي إلى النبي (ﷺ) هو بدء الدين وبيانه.

أما عن بدء البعثة النبوية في مصادر السيرة، فيروي ابن هشام (ت٢١٨ هـ) عن ابن اسحاق رواية يرجع سندها إلى الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، حدثته "أن أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به – الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله (ﷺ) رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده"(٨).

ويرد ابن هشام بالاعتماد على رواية ابن إسحاق فيقول: "قال ابن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان قال: [لي] عبيد: فكان رسول الله (ﷺ) يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يُطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله (ﷺ) جواره من شهره

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٢.
(٢) سورة النجم، آية ٣.
(٣) سورة النساء، آية ١٦٣.
(٤) البغدادي، جلال الحنفي، شخصية الرسول الأعظم قرآنياً [ط١، دار الحرية، بغداد، ١٩٩٧] ص١٩.
(٥) سورة القصص، آية ٧.
(٦) سورة النحل، آية ٦٨.
(٧) أبي عبدالله محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري [دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦] ج١، ص٥.
(٨) سيرة النبي، ج١، ص١٥٣. انظر كذلك: ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد [عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦] ج١، ص٢٨٥.

ذلك، كان أول ما يبدأ به – إذا انصرف من جواره – الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر [شهر] رمضان، خرج رسول (ﷺ) إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله (ﷺ): فجاءني جبريل، وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ؛ قال: قلت: ما أقرأ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ؛ قال: فقلت: ما أقرأ قال: فغتني• به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني، فقال: اقرأ؛ قال: قلت: ماذا أقرأ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ؛ قال: فقلت: ماذا أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)[١] قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً، قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل، صاف قدميه في أفق السماء يقول: أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك؛ ثم انصرف عني"[٢].

وفي رواية سندها مرفوع الى هشام بن عروة ثم عروة بن الزبير "إن رسول الله (ﷺ) قال يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً •

• يروى فغطني كما في الصحيحين، وغتني أي: خنقني (حتى بلغ مني الجهد) وفعل ذلك ثلاثاً. قال أبو سلمان الخطابي: إنما فعل ذلك به ليبلو صبره، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه به من أعباء النبوة. انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٣٩٣.

(١) سورة العلق، الآيات من ١-٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص١٥٥. وكذلك: الطبري، ابي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك [دار احياء التراث العربي، لبنان، بيروت] مجلد ١، ج٢، ص٢٠٥.

• وفي رواية أخرى: إنني أخشى ان يكون بي جن. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٣٠.

فقالت إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله إنك تصدق الحديث وتوفي الأمانة وتصل الرحم"[١].

أما عن هيأة الوحي فقد "أخبر معن بن عيسى عن مالك بن أنس عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن الحارث بن هشام قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي. فقال رسول الله (ﷺ): أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: لقد رأيت ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً"[٢].

وفي هذا الصدد آية قرآنية تؤشر إلى صلة الرسول (ﷺ) بالوحي والطريقة التي كان فيها الرسول (ﷺ) يجهد نفسه في حفظ ما يتلى عليه، فقال عزّ من قائل: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾[٣]. فكان رسول الله (ﷺ) بعد ذلك، حينما يأتيه جبريل (الوحي) يستمع دون أن يردد معه. وقد ظل النبي عليه السلام عبداً مأموراً محتسباً يبلّغ فلا يضيف لكلام الله – شيئاً – الذي يثبت في قلبه فيتكلم به أو يأمر بكتابته[٤] وتدوينه. وكان جبريل الذي وصف بالروح الأمين هو الذي يبلغ النبي (ﷺ) آيات الكتاب الكريم كما تسلمه[٥].

تمثل الوحي (جبريل عليه السلام) للرسول (ﷺ) بأشكال مختلفة ونزل عليه في أزمنة وظروف مختلفة. وجاء عن ابن إسحاق قوله: "وقد قال إبراهيم عليه السلام، ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾[٦]. وهذا دليل على أن الوحي كان يأتي الأنبياء في منامهم كما يأتيهم في اليقظة"[٧].

---

(١) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى [مطبعة بريل، ليدن، ١٣٢٢هـ/ج١، ص١٣٠، انظر كذلك: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، السنن الكبرى، [ط١، دائرة المعارف، الهند، ١٩٣٧] ج٩، ص٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٣٢.

(٣) سورة القيامة، الآية ١٦-١٧.

(٤) الكتاني، عبدالحق، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، [ط١، الكتاب العربي، بيروت، بلا] ص١١٥.

(٥) الصغير، محمد حسين علي، ظاهرة الوحي والمستشرقون، [بحث القي في ندوة المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي] كلية الفقه، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٦، ص١١٤.

(٦) سورة الصافات، آية ١٠٢.

(٧) السهيلي، الروض الأنف، ج١، ص٢٦٩.

وقد "كان النبي (ﷺ) يرسل الحديث ويقوله ويتبع ذلك أهله وأصحابه ثم يتلوا القرآن ويقرأه فما اتفق يوماً أن تشاكل النصان أو تشابه القولان"[١]. فالقرآن كلام الله له أسلوبه الخاص، نطق به محمد (ﷺ) بكل أمانة. أما الحديث الشريف، فهو كلام النبي يشرّع فيه، وله أيضاً أسلوبه الخاص، وقد ظلت ظاهرة الوحي التي رافقت حياة النبي عليه السلام، مرئية، مسموعة، له وحده، لكنها كانت يقيناً بدليل عظمة ما كان يتلوه عليه السلام من كلام الله العزيز الحكيم، وعظيم أثره في النفوس التي صدّقته وآمنت به من غير أن تراه.

وكانت للوحي علامات واضحة تبدو دائماً على ملامح وجه النبي عليه السلام حيث يقول ابن سعد: في رواية مرسلة عن عبادة بن الصامت "أن النبي (ﷺ) كان إذا نزل عليه الوحي كُرِبَ له وتربد وجهه"[٢].

وقف المستشرقون عند هذا الموضوع، ليخرجوا بنتيجة ليس لها أساس في الروايات التاريخية المسندة، وقد حاولوا أن يعثروا على حالات تقودهم إلى تفسير الوحي ونتائج تبليغ الرسالة السماوية وكأنه حالة مرضية عصبية[٣]، حيث أن المريض بها يكون في حالة غيبوبة وغثيان وشرود.

وقد تغافل المستشرقون عن أن النبي عليه السلام استخدم ذاكرته بعد نزول الوحي إستخداماً كاملاً، في حين يفقد المصابون بهذه الأمراض قدرتهم على تذكر ما يحدث في تلك النوبات لكون الإدراك لديهم يتعطل في تلك اللحظات.

ويفسر الأطباء من أهل الاختصاص هذه الحالات بأنها "تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ، يفقد فيها المريض شعوره. أما ما قد يهلوس به المريض فهو ليس إلا ذكريات قديمة تتكرر بتكرار النوبات بشكل واحد"[٤].

وإذا حاولنا القياس على هذا التفسير العلمي الذي لا يمكن أن يرفضه دعاة العلم والمادية، نجد أن الوحي لم يكن يأتي بتكرار نمطي، لكنه على مرّ ثلاثة وعشرين عاماً نسج للبشرية عقيدة نافعة في أمور الحياة كافة.

وكما نرى، فإن المستشرقين الفرنسيين، شأنهم شأن المستشرقين في أوروبا وأميركا، يتمسكون بهذا التفسير النفسي – المرضي عند معالجتهم موضوع الوحي.

---

(١) الصغير، محمد حسين علي، ظاهرة الوحي والمستشرقون، ص١١٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٣١.

(٣) قبيسي، حسن رودنسون ونبي الأسلام، ص١٠.

(٤) جبري عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص٧٧.

المبحث الثاني

أثر النصارى في النبي (ﷺ)

مسألة استشراقية أخرى نتعرض لها هي "أثر النصرانية على الدعوة الإسلامية" حيث تذهب روايات بعض المستشرقين إلى القول إن النبي (ﷺ) اتصل ببعض الرهبان وبأشخاص من النصارى كانت لهم معرفة بالكتب المقدسة، ونسج محمد عليه السلام قرآنه من هذه المعارف، الأمر الذي جعل الأثر المسيحي واضحاً، وكذلك الأثر اليهودي، في القرآن.

والجدير بالذكر أن قريشاً سبقت المستشرقين في هذا الإدعاء حينما قالوا إنما يعلمه جبر الرومي الذي يصنع السيوف مع رفيق له هو يسار الرومي في المروه، لحساب سيدهما[1]، وكان رد القرآن عليهم بليغاً واضحاً في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[2].

لقد تناغم هذا الزعم مع ما كان يهدف إليه• بعض المستشرقين الفرنسيين، مثل هنري ماسيّ، الذي يتطرق إلى قصة الراهب بحيرا وعلاقته بالنبي قائلاً:

"أثناء رحلاته لحساب خديجة لقي في سوريا راهباً مسيحياً، وفي التقليد الإسلامي أساطير عدة تتعلق بمقابلات محمد للرهبان (سرجيوس ، بحيرا ونسطور) وهي أساطير ترمي إلى بيان أن المسيحيين عرفوا باكراً بصفات محمد النبوية[3].

أما درمنغم في كتابه "حياة محمد"، فقد ركّز على موضوع انتشار المسيحية في جزيرة العرب وما حولها بشكل لافت، في محاولة لتهيئة ذهن القارئ لتقبل النتائج التي وصل إليها من حتمية الأثر النصراني في القرآن ويقول ما نصه: "ومما يستوقف النظر أن القرآن أقرب إلى النصرانية من الأحاديث"[4]، ويضيف عليها:

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٢٥.

(٢) سورة النحل، آية ١٠٣.

• وقد تطرق بعض الكتاب النصارى في العصور الوسطى إلى القول بأن محمداً (ﷺ) في حقيقته راهب مسيحي أو أسقف عرف في مسيحيي العصور الوسطى. أما بيلاغيوس Pelagius أو نيكولاس Nicholas قد انحرف عن الديانة النصرانية. انظر: Gabrielli, Muhammad and the Conquest of Islam, P14-15. انظر أيضاً: لوبون، حضارة العرب، ص١٠٢.

(٣) ماسييه، هنري، الإسلام، ترجمة بهيج شعبان [ط١، بيروت، ١٩٦٠] ص٤٢.

(٤) درمنغم، حياة محمد، ص٦٤.

"مما لا مراء فيه أن كان للنصرانية أثر في محمد وأن أيقظ حنفاء العرب كزيد بن عمرو ورهبان النساطرة كبحيرا ونصارى مكة كورقة بن نوفل، شعوره الديني قبل البعثة"[١]، إلى أن يصل لنتيجة مفادها "أن النصرانية تشتمل على الإسلام وتضيف إليه بعض الشيء"[٢].

وهنا لا بد من الوقوف على أشهر قصة في تاريخ السيرة النبوية الشريفة التي تعكس فكرة الإستشراق في تأثير النصرانية على الإسلام، ألا وهي قصة• بحيرا التي لم يغفلها المستشرقون الفرنسيون أيضاً.

روى ابن هشام نقلاً عن ابن اسحاق أن أبا طالب عم النبي (ﷺ) خرج في تجارة إلى الشام، مصطحباً معه إبن أخيه محمد (ﷺ) وهو غلام حديث السن، فلما حطوا رحالهم في بصرى من أرض الشام، دعاهم راهب فيها ويدعى بحيرا•• إلى طعام، وما كان يفعل ذلك من قبل حين يمرون به.

ورأى معهم محمد عليه السلام وجعل ينظر إليه ليرى ما قد علمه من علامات النبوة فيه، وسأله بعض الأسئلة عن أحواله "ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده"[٣]، وبعدها سأل أبو طالب عنه، ولما تأكد أن أباه مات، وأمه حبلى به، تيقن أنه النبي الموعود.

وقال لأبي طالب: "فارجع بإبن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا ما عرفت ليبغينه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده"[٤].

إن القراءة الأولية لهذه الرواية تفند المبالغة في النتائج التي توصل إليها المستشرقون.

فعمر النبي (ﷺ) حينها كان يتراوح بين التسع والثلاث عشرة سنة حسب المصادر التاريخية[١]، بدليل أن القوم لم يدعوه معهم للجلوس إلى طعام بحيرا لحداثة سنه.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٤

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٣.

- وقف مونتغمري وات، على هذه القصة وترجمها حرفياً معتمداً على ابن هشام دون أن يبدي رأياً وهو مؤشر إلى ثقته بالقصة. انظر: Watt, Muhammad at MECCA P36-38.
- ورد اسم بحيري بهذه الصيغة عند ابن هشام وبهذه الصيغة بحيرا في اغلب المصادر الإسلامية.

(٣) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج١، ص٥٥.

(٤) ابن اسحاق، محمد بن يسار، (ت١٥١هـ/ ٧٦٨م)، المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الله [مطبعة محمد الخامس، فاس، المغرب، ١٩٧٦]ج٢، ص٥٥. ابن هشام، السيرة، ج١، ص١١٦-١١٨. ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٧٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٩٤. ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٢٤٣-٢٤٥.

والحديث الذي دار بين النبي عليه السلام وبين الراهب بحيرا لم يتجاوز اسئلة عدة، حاول من خلالها الراهب اكتشاف الصفات التي يعرف بها النبي والتي وردت في الكتب المقدسة[٢].

وحين يتأكد الراهب بحيرا من توفر الصفات التي عرفها كما جاءت في الإنجيل[٣]، يطلب من أبي طالب أن يحميه من اليهود ويعود به إلى بلده، لما عُرف عن اليهود من تحريفهم للتوراة وقتلهم وتعذيبهم للأنبياء.

وفي رواية الأصبهاني حول الرحلة نفسها، يضيف على ما جاء في سيرة ابن هشام من حديث بحيرا مع أبي طالب: "كائن لابن أخيك شأن عظيم نجده في كتبنا، ما ورثناه عن آبائنا وقد أخذ علينا مواثيق"[٤]. وعندما يسأله أبو طالب عمن أخذ عليهم المواثيق، يجيب الراهب: "الله أخذها علينا، نزل به عيسى بن مريم" ثم يضيف بأن هناك من اليهود من عرفه بصفاته، وأرادوا قتله إلا أن بحيرا صرفهم عن هذا الأمر[٥].

وبقدر ما في هذه الرواية من تأكيد لنبوة محمد (ﷺ)، بقدر ما فيها من دحض لآراء المستشرقين حول تأثره عليه السلام بالديانات السابقة، النصرانية واليهودية.

ثم لماذا ينتظر محمد (ﷺ) كل هذه السنوات ليعلن عن نبوته، أي عندما بلغ الأربعين من العمر وتحديداً بعد ثلاثين سنة تقريباً؟ يذكر أنه لم يكن له سوى هذا اللقاء بالراهب بحيرا في تلك السن المبكرة التي لا تؤهله ليستوعب تعاليم الأديان السماوية.

مكسيم رودنسون شكك في هذه الرواية ورأى فيها أسطورة موضوعة ليس لها أهمية تاريخية[٦]، ويبدو أنه لم يجد فيها سوى دلالتها على نبوة محمد فشك بها.

والرحلة الثانية التي ذهبت بالرسول عليه الصلاة والسلام إلى الشام، قاد فيها القافلة التجارية التي تحمل أموال السيدة خديجة رضي الله عنها، لما أذست فيه من

---

(١) السهيلي، الروض الأنف، ج١، ص٢٠٦، أما المسعودي، فقد ذكر أن عمر النبي (ﷺ) كان ثلاث عشرة سنة. أنظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ابن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين، [ط٤، السعادة، القاهرة، ١٩٦٤] ج٢، ص٢٩٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص١٥٣.

(٣) السقا، أحمد حجازي، نبوة محمد في الكتاب المقدس [ط١، دار الفكر العالمي، القاهرة، ١٩٧٨] ص٩٧.

(٤) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، دلايل النبوة، [عالم الكتاب، بيروت، بلا] ج١، ص٥٣.

(٥) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج١، ص٥٥.

(6)Mohammed, P-47

صدق حديث وعظيم أمانة وكرم خلق، يرافقه غلامها ميسره، حيث أن الرسول عليه السلام لم يلتق بالراهب نسطور الذي تحدث إلى ميسره قائلاً له بعدما أمعن النظر إلى محمد عليه السلام وهو نائم تحت الشجرة: "ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي"• .. "وهذا النبي هو آخر الأنبياء"[1].

وميسره هو الغلام الأمين لخديجة رضي الله عنها، يخبرها بكل ما يرى، فلو كان محمد عليه السلام تحدث مع الراهب نسطور وعلامه الكتاب، لأخبر السيدة خديجة رضي الله عنها بذلك، إلا أنه أخبرها بحديثه مع الراهب، وذكر لها ما كان يراه من الملكين اللذين يظللان محمد عليه السلام في الطريق.

وتستوثق السيدة خديجة رضي الله عنها من ورقة بن نوفل ابن عمها، ما سمعت من غلامها، فيؤكد ورقة بأنه إذا صحت هذه الأحاديث لهو نبي هذه الأمة وهذا زمانه[2].

وبسبب هذه الأحاديث، مع ما عرف عنه عليه السلام من أمانة وصدق، رغبت به السيدة خديجة رضي الله عنها زوجاً لها، وكانت أول من آمن به وصدقته، وإيمانها دليل أكيد على صدق نبوته (ﷺ).

أما الشخصية الأخرى التي ركز المستشرقون عليها باعتبارها المصدر الملهم للقرآن الكريم والمؤثر الروحي في الرسول الكريم عليه السلام فهي ورقة بن نوفل•.

- يفسر السهيلي قول الراهب بأنه ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي هذه الساعة وذلك لبعد العهد بين الأنبياء كما أنه يرى أن الشجرة لا يمكن أن تعمر هذا العمر. الروض الأنف، ج١، ص٢١١.

(١) ابن اسحق، المبتدأ والمبعث، المغازي، ج٢، ص٥٩. ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٢٣. ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٨٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٩٦، ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٢٦٣.

(٢) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٢، ص٥٩. ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٢٣، ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٨٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٩٦. ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٢٦٧-٢٦٨.

- هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزي، يذكر أنه أحد أربعة من قريش رفضوا وثنية قومهم وقد استحكم ورقة في النصرانية بعد ما علم من الكتاب. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص١٤٦.

وفي رواية لأبن الأثير عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول (ﷺ) كان قد رأى ورقة، عليه ثياب بياض وقد أخبر أنه لو كان من أهل النار لكان لباسه غير ذلك. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٥، ص٨٩. ويقول جواد علي، يحتمل أن ورقة كان من الأحناف على دين إبراهيم وليس مبشراً نصرانياً. تاريخ العرب في الإسلام [مكتبة دار الحداثة، بيروت، بلا] ص١٨٣.

يقول المستشرقون إن ورقة هو المعلم الإنجيلي الكبير الذي تلقى محمد عليه السلام تعاليمه الدينية على يديه، واقتبس وأخذ منه، وخرج إلى العالم بعد ذلك مدّعياً النبوة.

في الواقع، غلبت المبالغة على مسألة ورقة بن نوفل، هي الأخرى، لدى المستشرقين.

قامت علاقة النبي عليه السلام بورقة من خلال السيدة خديجة رضي الله عنها، إذ أنه كان ابن عمها، وهي شاهدة على تلك العلاقة الواضحة في مسيرة النبي عليه السلام منذ بدء الوحي حينما أخبرها عليه السلام بما حدث له في غار حراء، فانطلقت إلى ابن عمها وأخبرته بما رأى محمد (ﷺ) فقال لها: "قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاء الناموس الأكبر• الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت".

وقد لقي النبي ورقة بعد ذلك وهو يطوف في الكعبة، فقال له: "والذي نفس ورقة بيده، إنك لنبي هذه الأمة، لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى .. ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف"[١].

وفي حديث أخرجه الإمام البخاري رضي الله عنه بأن خديجة رضي الله عنها انطلقت ومعها رسول الله (ﷺ) إلى ورقة الذي كان قد تنصر في الجاهلية وكان شيخاً قد عمي، وسمع الخبر من النبي وأجابه بأنه الناموس الذي نزل على موسى وتمنى أن يدركه لينصره إلا أنه توفي، وفتر الوحي[٢].

والجدير بالملاحظة أن النبي لو تعلّم شيئاً من ورقة أو كانت علاقته به تسمح بذلك لكانت خديجة رضي الله عنها أول من علم كونها أول من آمن به، وأكثر الناس تقديراً له، والأهم من ذلك أن هذا الأمر لم يكن ليخفى على قريش التي كانت لتواجه النبي به.

يورد درمنغم أن ورقة كان أول من ترجم الأناجيل[٣] وهذا ادعاء ينطوي على منطق لأن أول ترجمة عربية رسمية كاملة للعهدين، حسب بعض الغربيين، ظهرت بعد وفاة النبي (ﷺ) بقرون عدة[٤].

• يعني جبريل عليه السلام الذي نزل على موسى عليه السلام. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٧.

(١) ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٥٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٧.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ص٧.

(٣) درمنغم، حياة محمد، ص٧٦.

(٤) حسن، محمدعبدالغني، الإسلام بين الإنصاف والجحود، ص١٢٢.

ويؤكد الغزالي ذلك إذ لم يجد أية ترجمة للعهد الجديد نظراً الى حاجته به، فاضطر إلى اللجوء لمخطوط قبطي كي يحرر رده في أحد مؤلفاته[١]. ويدفعنا ادعاء المستشرقين لنسأل عن أثر ورقة في الأحداث التي تلت البعثة والهجرة، علما انه توفي في العام الثاني عشر قبل الهجرة.

كما أن النبي (ﷺ) عندما أراد الله به ما أراد، كان يذهب ليتحدث[٢] في غار حراء بعيداً عن الناس، يخلد لنفسه وليس قريباً منه أحد سوى الله معلمه الأوحد.

وشدد المستشرقون عامة والفرنسيون على وجه التحديد، على ذكر الشخصيات النصرانية واعتبروها المؤثر الأساسي على الرسول الكريم (ﷺ)، لا بل على الدعوة الإسلامية، ثم ذهبوا أكثر من ذلك فجعلوه عليه السلام متأثراً برجالات آخرين، حسبوهم نصارى•، في حين لم تذكر المصادر التاريخية عنهم ذلك، نظير مولاه ومتبناه زيد بن حارثة[٣] بن شرحبيل وأمه سعدى بنت ثعلبة من طيئ، وكان أشهر موالي النبي عليه السلام وأحبهم إليه، وأصابه في الجاهلية أسر بعد أن أغير على قوم أمه التي كانت تزورهم، واشتراه لخديجة أحد أقربائها في سوق عكاظ ووهبته بدورها الى النبي عليه السلام. وقيل بل رآه النبي عليه السلام ينادى عليه في بطحاء مكة فاشتراه لخديجة رضي الله عنها التي وهبته للنبي عليه السلام فأعتقه وتبناه وهو ابن ثماني سنوات[٤].

ولتحليل قصة زيد أبعاد مهمة جداً، فالصبي الذي لم يتجاوز عمره ثماني سنوات، فضلاً عن أنه لم يكن ممن تفقه بالنصرانية، كان مؤثراً على النبي الكريم عليه السلام وهو يقترب من سن الأربعين، كما كان من السهل على قريش أن تدرك ذلك وتستخدمه ضد النبي.

معلوم ان زيد هو من أوائل الذين أسلموا وحسن إسلامهم وإخلاصهم للنبي حتى آخر أيام حياته.

هكذا نجد أن ما جاء به بعض المستشرقين حول الأثر الديني النصراني في النبي عليه السلام وفي الإسلام لا يعدو عن كونه باطلاً، فقريش وعلى الرغم من وثنيتها وأصنامها صمدت في وجه المؤثرات الدينية (النصرانية واليهودية)، وهذا دليل على عدم تأثيرها في بيئة محمد عليه السلام.

---

(١) بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبدالصبور شاهين [دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠] ص٢٤٧.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٦.

• وفي (الأنسيكلوبيديا) دائرة المعارف الفرنسية أن زيداً مسيحي وينتمي إلى قبيلة مسيحية L'encyclopedie (Volume 8), Edition de la Roch Faucauld. 1998. P-2362

(٣) ابن هشام، السيرة، ج١ ص١٦٣. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص٩٤.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، مجلد ٤، ص٢٢٤.

كما أن القرآن الكريم بيّن بجلاء في سور وآيات الضرورة الملحة في اختيار العناية الإلهية للرسل والأنبياء في كل زمان ومكان تعبيراً عن المفاسد والمساوئ الاجتماعية والاقتصادية والحضارية، وأنزل الله تعالى عليهم المعجزات والكتب السماوية لدعم مواقفهم إزاء الكفار، وهذا هو سبب التشابه في ما بينها والذي أشار إليه درمنغم وغيره من المستشرقين، وهو تأكيد على قدسية القرآن وذلك بعيداً عن مسألة التشريع التي جاءت في القرآن الكريم بكل ما يمكن أن يكون عليه كتاب الله لخاتم الأنبياء وخاتم الكتب.

ويجدر القول في الختام إن العناصر التي سبق الحديث عنها في هذا المبحث أثارت مسائل تبناها المستشرقون بشكل مباشر ولم يخضعوها إلى منهج نقدي، وهو المنهج الذي يعتبرونه جزءاً مهماً في بحوثهم ودراساتهم.

لم يكتفوا بذلك بل أسسوا عليه فرضيات جاهزة ونظريات ما زالت قائمة حتى الآن وكأنها قانون، مع أن المشركين في مكة أدلوا بما هو أوضح منها آنذاك، لكنهم تخلوا عنها عندما بين القرآن الكريم خطلها، وتحداهم أن يأتوا بسورة بل بآية واحدة مما يأتي به محمد عليه السلام، ففشلوا في الرد وأحبطت آراؤهم وانسحبوا من ميدان الصراع الفكري التوحيدي مع الرسول عليه السلام.

من جانبهم، بقي المستشرقون يكررون المزاعم نفسها دون منهجية، ما يعزز الرأي بأن الكثير من المستشرقين النصارى هم من رجال الدين أو من المتخرجين من المدارس اللاهوتية والأديرة، وقد حاولوا جاهدين رد الكثير من آيات الله في قرآنه الكريم إلى أصول نصرانية[1].

(١) مغنية، جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص١٠".

المبحث الثالث

علاقة النبي (ﷺ) باليهود

نظر المستشرقون الفرنسيون إلى العلاقة بين النبي (ﷺ) واليهود من زاويتين:

الأولى فكرية عقائدية دينية، تدور حول مدى التأثير اليهودي على الدين الإسلامي، حيث ادعوا أن الإسلام اقتبس من اليهودية مسائل مهمة عدة، وأن محمداً عليه السلام كان من الذكاء والعبقرية بحيث أفلح في تطويع العقائد اليهودية المطبقة عند اليهود، والواردة في التوراة، بما يتناسب والبيئة العربية بحكمة بالغة.

والثانية سياسية، وتتصل بطبيعة العلاقة التي سادت بين الرسول عليه السلام واليهود، حيث اعتبر العديد من المستشرقين الفرنسيين بأنها اتسمت بالقسوة البالغة وهي – أي قسوة النبي عليه السلام – أكبر بكثير من الإساءات والخيانات التي مارسها اليهود ضده عليه السلام.

وأسهب المستشرقون الفرنسيون في وصف ما تعرض له اليهود من جانب النبي والمسلمين، حتى يخيل وهو ما يرمون إلى تحقيقه وكأن النبي عليه السلام وأصحابه هم مجرد قتلة سفاكي دماء، مجرَّدين من الإنسانية[١].

واستند المستشرقون الفرنسيون في ما يخص الجانب الفكري العقائدي الديني، إلى وجود عناصر من التشابه في العقائد والتعاليم والعبادات كالصلاة والصيام. ففي الأولى، كان توجه المسلمين في البداية نحو القدس. وفي هذا الجانب، يتجاهل المستشرقون أن الصلوات فرضت بعد الإسراء والمعراج، أي قبل الهجرة إلى المدينة بفترة طويلة، فيقول إبن أسحاق في رواية "عن يونس عن أسباط بن نصر عن اسماعيل السدي قال: فُرض على رسول الله الخمس في بيت المقدس ليلة أسري به قبل مهاجره بستة عشر شهراً"[٢].

ويذكر ابن سعد رواية مصدرها محمد بن عمر الواقدي مرفوعة في سندها إلى أبي بكر رضي الله عنه: "قالوا: فرضت عليه الصلوات الخمس ونزل جبريل عليه السلام فصلى برسول الله (ﷺ) الصلوات في مواقيتها"[٣]. أما صلاة الجمعة التي

---

(١) انظر مكسيم رودنسون، وهو يصف الموقف في كتابه (محمد) حيث يصور ما جرى لليهود قائلاً "وعندما انبلج الفجر الأحمر لشهر مايو (٦٢٧م) على مقابر بن قريظة الجماعية، استطاع محمد استشراف المستقبل باطمئنان Rodinson, Maxime. Muhammad P-214.

(٢) المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٢، ص٢٧٧.

(٣) الطبقات الكبرى، ج١، ص١٤٣.

جعلها المستشرقون تقليداً لصلاة اليهود يوم السبت، فتاريخ العقيدة الإسلامية يؤكد أنها في الأساس تجمّع ديني إجتماعي لزمن محدود ثم يذهب المسلمون بعدها الى أعمالهم، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ [1]. إلى قوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [2].

أما المقصود بالسبت عند اليهود فهو قضاء يوم كامل من دون عمل حيث أنهم يسبتون عشية السبت إلى مساء السبت فلا يقومون بأي عمل في سبتهم هذا[3]. أما الصيام، فإن النبي عليه السلام، عندما دخل المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء•، وقد سنها الرسول عليه السلام حيث رأى أنه أولى بموسى عليه السلام من اليهود، واستمر كذلك حتى فرض الله صيام شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة ليحل محل عاشوراء[4]، حيث يقول تعالى في كتابه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [5].

كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم في البداية نحو القدس، وكان النبي يتمنى دوماً أن تتبدل القبلة من القدس إلى بيت إبراهيم عليه السلام (الكعبة المشرّفة في مكة) ويصف القرآن الكريم هذا الموقف فيقول تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [6]، و جاء عن ابن اسحاق قوله: "حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد قال: صرف القبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر الرسول عليه السلام إلى

---

(١) سورة الجمعة، آية ٩.

(٢) سورة الجمعة، آية ١٠.

(٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ١٦، الآيات ٢٢-٢٦، وكذلك الإصحاح ٢٠ الآيات ١٠-١١.

• هو اليوم الذي أغرق الله فيه آل فرعون ونجّا موسى عليه السلام، ومن كان معه. انظر: الملاح، هاشم، موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة، [ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨] ص٤٢.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٦.

(٥) سورة البقرة، آية ١٨٣.

(٦) سورة البقرة آية ١٤٤.

المدينة"[1]. كما جاء عن الذهبي "أن القبلة صرفت في رجب أو قريباً منه"[2]. وكان صرف القبلة عن بيت المقدس أثار حفيظة اليهود الذين وصفهم الله تعالى بالسفهاء في قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[3].

كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى استحالة كسب اليهود واتباعهم قبلة الإسلام بقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

وفي ضوء ما تقدم، نلاحظ أن هذه العبادات والتشريعات ذات طابع عربي إسلامي وتتميز عن العقائد والعبادات في الأديان السابقة وهذا ما جعل اليهود يكيدون للمسلمين.

كما أن هذه التشريعات نمت وتطورت[5]، أما الحكمة الإلهية فهي في طبيعة وتطور هذه التشريعات بما يتناسب والمراحل التاريخية، فما كان محللاً من عادات وقيم في اليهودية والنصرانية مثلاً نسخه الإسلام وما جاء به النبي موسى وعيسى عليهما السلام في حقبة ما نسخته نبوّة محمد (ﷺ) فهو خاتم الأنبياء.

أما صراع النبي عليه السلام مع اليهود على الصعيدين السياسي والعسكري، فسنحاول توضيح معالمه بشيء من التفصيل معتمدين على مؤلفات السيرة أيضاً مع الإستدلال والإستشهاد بآيات من كتاب الله العزيز التي صورت بشكل تفصيلي حقيقة هذا الصراع، وهي حالة باتت تتردد دوماً على ألسنة المستشرقين، اليهود خاصة، لتعكس أحوال اليهود في المجتمع الإسلامي وتتحدث عن أنهم تعرضوا إلى أذى وظلم كبيرين من الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

كان اليهود قبل ظهور الذبي (ﷺ) يدركون وفق ما جاء في التوراة أن نبينا سيظهر منهم ليوحدهم ويقودهم الى مقاتلة العرب، وقد عُدَّ ظهور نبي من العرب

---

(١) المبتدأ والبعث والمغازي، ص٢٧٩.

(٢) الذهبي، أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، التاريخ الكبير، تحقيق محمد عبدالهادي شعيره [دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣] ص٩٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٢.

(٤) سورة البقرة آية ١٤٥.

(٥) الملاح، هاشم، موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة، ص٤٣.

بمثابة القضاء الكامل على هذه التوقعات والآمال، لذلك ناهضوا النبي عليه السلام وأبغضوه منذ البداية، ومما جاء في سيرة ابن اسحاق أنه قال: "حدثنا أحمد قال: حدثنا يونس عن ابن اسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتاده قال حدثني أشياخ منّا قالوا لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله (ﷺ) منا، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن فكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبياً مبعوثاً، الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله اتبعناه وكفروا به، ففينا والله فيهم أنزل الله عزّ وجل[1] ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. ولما قدِم رسول الله (ﷺ) إلى المدينة، نظم العلاقة بين جماعاتها حيث "كتب رسول الله (ﷺ) كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه يهوداً وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم"[3]•.

هذه الوثيقة، التي عرفت باسم الصحيفة، أوضحت معالم العلاقة بين النبي عليه السلام والمسلمين من جهة وبين اليهود من جهة أخرى على أساس من الاحترام والتعاون في المجتمع الموحد (مجتمع المدينة)، كما اعتبرهم النبي أهل كتاب.

---

(١) ابن اسحاق السيرة، ص٦٣.

(٢) سورة البقرة، آية ٨٩.

(٣) ابن هشام السيرة، ج٢، ص٣٤٨، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص١٩٧.

• ومما ورد في الوثيقة (الكتاب) التي كتبها رسول الله (ﷺ) بخصوص اليهود نقتطع منها ما يأتي:

ـ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ـ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم.

ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو إشتحار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (ﷺ) وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

ـ إنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو أثم وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن برَّ واتقى ومحمد رسول الله (ﷺ).

ـ أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم والمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ** إلا نفسه وأهل بيته.

** يوتغ يُهلك أو يُفسد. انظر: ابن هشام السيرة، ج٣، ص٣٥٠. انظر كذلك: الحيدر آبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة [ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦] ص١٥-٢١. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص١٩٧.

وعلى الرغم من ذلك، ما كان موقف اليهود؟

لقد تظاهروا بالموافقة على ما جاء بالصحيفة إلا أنهم كما أسلفنا، رفضوا فكرة أن نبياً أصله من العرب يبعث، رغم تأكدهم من نبوته، وقد شهدت صفية بنت حييّ بن اخطب بذلك، فوالدها من زعماء بني النظير، وسمعته يتحدث مع عمها حول حقيقة نبوة محمد عليه السلام، إلا أنه أضمر له العداوة حيث قال: "نعم والله إنه هو وما بيني وبينه إلا العداوة ما حييت"(١).

كما ساهم اليهود مع بعض المشركين في المدينة تظاهروا بالإسلام فكوّنوا وسطاً مثيراً للإشاعات والمكائد، وهدفوا من وراء ذلك إلى تمزيق الوحدة والتماسك اللذين أوجدهم الإسلام بين المسلمين؛ وقد وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(٢).

وقال ابن اسحاق: "وكان ممن انضاف إلى يهود ممن سمي لنا من المنافقين من الأوس والخزرج"(٣).

عمل اليهود على التشكيك بنبوة محمد (ﷺ) وتكذيبه من خلال الحوارات والمناظرات التي كانوا يتقصدون فيها الإتيان بكل ما يلبس الحق بالباطل، كما حاول بعضهم ذلك من خلال الاعتناق الظاهري للإسلام، ويذكر ابن اسحاق أسماء أشخاص "ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود"(٤)، وغيرهم ممن كانوا يستهزئون بالشعائر الإسلامية، كما كان بعضهم يعتنق الإسلام لفترة ثم يتركه ليظهر شيئاً من الشك بالعقيدة، ونزلت آيات عديدة توضح وتكشف هذه المواقف منها: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٥). وقد زعم اليهود أن الله خصّ بني إسرائيل وحدهم بالنبوة وهم بذلك يثبتون كما وصفهم القرآن متذكرين لكل أنبياء الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٣٦٣.
(٢) سورة المائدة، آية ٨١.
(٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٣٦٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٩.
(٥) سورة آل عمران، آية ٧٢.

مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1]، ويقول ابن هشام: "ففي هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر سورة البقرة إلى المئة منها"[2].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل راح شعراؤهم يهجون الرسول (ﷺ) ويشتمونه، ويحرضون الناس عليه، ويقفون حائلاً في وجه من يريد الدخول في الإسلام، ومن أبرزهم كعب بن الأشرف الذي ذهب إلى مكة بعد بدر يحرض قريشاً ويرثي قتلاها، كما كان يشبب بنساء المسلمين، وقد قال النبي (ﷺ): "من لي بإبن الأشرف فقد آذاني"[3]. وقد استدرج الأشرف ليقتل وحده حتى لا تراق دماء غيره من قومه إذا حاولوا حمايته. ومنهم أيضاً الشاعر أبي عفك الذي كان شيخاً طاعناً في السن، يحرّض على قتال النبي ويقول فيه الشعر[4].

ويضاف الى هؤلاء الشاعرة عصماء بنت مروان، التي كانت تشتم الرسول عليه السلام شتماً فاحشاً وعُرفت بسلاطة اللسان وترهب الذين يريدون الدخول في الإسلام من قومها[5].

"ومهما يكن من أمر فإن معاقبة هؤلاء الشعراء كان مهماً في جعل اليهود تحسب حساب النبي والمسلمين في المدينة"[6].

حاول المستشرقون الفرنسيون تمثيل مقتل كعب بن الأشرف بشكل درامي ومفصل، يثير الشكوك والتساؤلات[7]، في حين أن كل القوانين الوضعية والسماوية تجيز إعدام المحرض على الحرب، فضلاً عن نقضه لبنود الصحيفة التي سبق وأن ذكرت بعض فقراتها. كما أن بعض الكتاب العرب يعتبرونها "رواية مبتكرة لأنها تخالف الصحيح الثابت عن الرسول عليه السلام في تهيبه من قتل النساء والأطفال في زمن الحرب، فما بالك في أوقات السلم"[8].

---

(١) سورة البقرة، آية ٩١-٩٢.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٣٧٢.

(٣) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، (ت٦٣٠هـ/١٢٠٩م) الكامل في التاريخ [دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م] ج٢، ص١٤٣.

(٤) ابن دحلان، أحمد بن زيني، (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)، السيرة النبوية [الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣] ج٢، ص١٥.

(٥) جبري عبدالمتعال، السيرة وأوهام المستشرقين، ص١٢٧.

(٦) السهيلي، الروض الأنف، ج٣، ص١٤١.

(٧) درمنغم، حياة محمد، ص٢٣٠-٢٣٤.

(٨) جبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص١٢٧.

فقد بدأ النزاع العقيدي بين المسلمين اليهود في السنة الثانية للهجرة بعد معركة بدر[١]، واستمر لمدة خمس سنوات انتهت بإجلاء اليهود من المدينة، وهذه المدة الزمنية توضح أن النبي عليه السلام لم يكن ليجمل صراعه مع اليهود إلا مع القبيلة التي تنقض العهد معه، وكانت أولها قبيلة بني قينقاع.

يروي ابن اسحاق رواية عن عاصم بن عمر بن قتاده "إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول (ﷺ) وحاربوا في ما بين بدر وأحد"[٢]، ولعل قوة بني قينقاع ترجع إلى مكانتهم الإقتصادية، إذ كانوا المسيطرين على سوق المدينة[٣]. وتطور موقفهم في معاداة النبي الواضحة من خلال ما كان يجري في بيت "مدراس"[٤]، وهو مركزهم الديني والثقافي ومركز للعبادة وتداول أمورهم العامة وحسم المنازعات.

حاول اليهود باستمرار إذكاء نار الفتنة بين المسلمين، وفي أحيان أخرى إظهار الازدراء للمسلمين رجالاً ونساء وإثارة السخرية، كما وقع مع إحدى النساء المسلمات في سوق بني قينقاع، تلك الحادثة[٥] التي استنجدت فيها المسلمة بالمسلمين، فأنتجت قتالاً بين اليهود والمسلمين، وقتل فيها يهودي ومسلم، وعلى أثرها تحدى بنو قينقاع النبي بقوتهم وتحصنوا بحصونهم، فسار إليهم رسول الله (ﷺ) "وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد حصار ... وقد قذف الله في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكمه، وان له أموالهم، وقد كلّم عبدالله بن أبي سلول، رسول الله عليه السلام وألحَّ عليه فقال خذهم وأمرهم أن يجلوا عن المدينة[٦].

شدّد المستشرقون عامة والفرنسيون خاصة على الموقف من إجلاء بني النضير، وقد أورد درمنغم[٧] الموقف قائلاً: " إذ ظهر منهم ما اعتقد به (أي بالنبي) إنهم يعملون على خيانته ... وقد قام محمد من الإجتماع ببني النضير بغتة وخرج راجعاً".

وواقع الحال أن غدرهم ومحاولاتهم التآمر على حياة النبي عليه السلام حينما طلب منهم المساعدة في ديّة العامريين (وهو أمر منصوص عليه في الوثيقة) اللذين

---

(١) الذهبي، التاريخ الكبير، ج١، ص١٦٧.
(٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥٦١.
(٣) الحديثي، نزار عبداللطيف، الأمة والدولة في سياسة النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين [دار الحرية، بغداد، ١٩٨٧]، ص١١٣.
(٤) الملاح، هاشم، موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة، ص٢٠.
(٥) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥١١.
(٦) الذهبي، التاريخ الكبير، ج١، ص١٦٩.
(٧) حياة محمد، ص٢٥٤.

قتلهما عمر بن أميّة خطأ بعد وقعة بئر معونة، حيث كان النبي جالساً إلى جنب جدار بعد أن كلّمهم بشأن الديّة. ولما خلا بعضهم ببعض "قالوا لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن رجلاً يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه، فقال عمر بن جحّاش بن كعب، أنا"[١]، وقد جاء "أن سلام بن مشكم قد نهاهم عن طلبه وقال لهم هو يعلم، فلم يقبلوا منه، صعد عمر بن جحّاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله (ﷺ)، بما عزموا فقام راجعاً إلى المدينة[٢]. وقد عبّرت مؤامرتهم، فضلاً عما كانوا قد قاموا به بحق الإسلام ونبيه، عن استحالة الوثوق بهم، فبعث النبي يطلب منهم الجلاء عن المدينة، إلا أنهم رفضوا أمر النبي، وشجعهم على هذا العصيان زعيم المنافقين، لذلك تحصّنوا في حصونهم ورد المسلمون بقطع النخيل وحرق الزرع[٣]، ما أثار رعبهم وخوفهم فسألوا النبي فك الحصار وحقن دمائهم، وعرضوا أن يخرجوا بما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح فأجابهم، وخرجوا إلى خيبر[٤].

وقد جاء في تفسير السهيلي لسيرة ابن هشام قوله: "إن النبي لم يحرق من نخلهم إلا ما ليس يقوت الناس وكانوا يقتاتون العجوه ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى - وما قطعتم من لينة – ولم يقل – من نخلة[٥].

وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ ﴾[٦].

وعلى الرغم من التسامح الذي عامل فيه الرسول (ﷺ) بني النضير، فإنهم لم يرتدعوا بل استمروا في التآمر وتأليب القبائل على النبي عليه السلام حيث يقول الواقدي: "لما أجلى الرسول عليه السلام بني النضير ساروا إلى خيبر وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير... فلما قدموا خيبر خرج حييّ بن أخطب (من بني النضير) في بضعة عشر رجلاً إلى مكة، يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد (ﷺ)، فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً"[٧].

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٠٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧٣.
(٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٠٣.
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٧٣.
(٥) السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص٢٥٠.
(٦) سورة الحشر، آية ٢.
(٧) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسن [دار المعارف، مصر، ١٩٦٥] ج٢، ص٤٤١.

وعندما استفسرت قريش من اليهود عن حقيقة دين محمد (ﷺ) بوصفهم أهل علم بالكتاب القديم، ردّوا قائلين "أنتم أولى بالحق منه، إذكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتذحرون البُدن وتعبدون ما كان عليه آباؤكم فأنتم أولى بالحق"[١].

وقد أنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [٢].

كما اتصلوا ببني غطفان من قيس عيلان ودعوهم إلى حرب الرسول (ﷺ) [٣]، وجعلوا لهم (أي لبني غطفان) تمر خيبر لمدة سنة تشجيعاً لهم للحرب ضد النبي عليه السلام. وهكذا استطاع بنو النضير أن يُجيشوا الجيوش ضد النبي عليه السلام مطالبين بالثأر من المسلمين[٤].

أما بشأن موقف الرسول (ﷺ) من بني قريظة، فهو عنصر آخر شدد عليه المستشرقون لإظهار العلاقة بين النبي واليهود وكأنها في غير صالح اليهود تعمداً.

وحقيقة الأمر أن زعماء "الأحزاب" وجدوا لبني قريظة دوراً مهماً في كسب معركتهم مع النبي عليه السلام. فهم - أي بنو قريظة - كما يقول حييّ بن أخطب لأبي سفيان، حسب رواية الواقدي عن أبي أيوب عن النعمان عن أبيه "أهل حلقة وافرة، وهم سبعمائة وخمسين مقاتلا"[٥]، وطلب أبو سفيان من حييّ أن يرجع إليهم ليشجعهم على نقض العهد القائم بينهم وبين محمد عليه السلام. ونجح حييّ في إقناعهم بنقض ما بينهم وبين النبي (ﷺ) من عهود[٦]، وأصبحوا من خلال موقفهم المستجد شوكة في ظهر المسلمين، فهم في داخل المدينة وهي محاصرة من الأحزاب في موقعة الخندق.

يحدثنا الواقدي برواية عن ابن أبي سبره عن الحارث، أن بني قريظة عزموا على أن يغيروا على بيعة المدينة ليلاً، فأرسلوا حييّ بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم بألف رجل ومن غطفان ألف، فيغيروا بهم. وقد جاء الخبر رسول الله (ﷺ)[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٤٢.
(٢) سورة النساء، آية ٥١.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٤.
(٤) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٥٤.
(٥) المغازي، ج٢، ص٤٥٤.
(٦) السهيلي، الروض الأنف، ج٣، ص٣٦١.
(٧) المغازي، ج٢، ص٤٦٠.

وعلى هذا، قرر النبي عليه السلام أن يوجه قسما من الجيش لحراسة المدينة، وعمل على كسب الوقت ومحاولة تفريق خصومه[١].

بعد أن تأكد نقض بني قريظة للعهود والمواثيق بخيانتهم المسلمين و هم في حالة حرب مع أعدائهم[٢]، وتحقق النصر للنبي عليه السلام، خاف بنو قريظة خوفاً شديداً، ولم يكن النبي قد أمر بعد بقتالهم"[٣] حتى جاء جبريل عليه السلام وقال له إن الله يأمره أن يسير إلى بني قريظة. فأمر النبي عليه السلام مؤذناً، فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلا ببني قريظة"[٤].

حاصر النبي عليه السلام بني قريظة حوالي الشهر متجنباً قتالهم، ولما اشتد الحصار، أرسلوا أنهم يوافقون على الإستسلام، وقد حكم النبي فيهم سعد بن معاذ الأوسي لأن اليهود كانوا يثقون فيه. وحكم عليهم سعد بأن يقتل المقاتل وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال[٥]. وقد حكم فيهم حُكم الله.

ويلاحظ أن المستشرقين لم ينتقدوا موقف قريظة الخياني وتآمرهم على مصير الإسلام والمسلمين، بينما يسلطون سهامهم إلى ما وقع من أمر لا بد منه بالنسبة الى هذا الموقف الخياني.

ثمة آراء حول صحة هذه الرواية والحكم على بني قريظة، فرجال قريظة وعددهم ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ رجل يعتبرون أسرى حرب[٦]، وقد اتبع الإسلام مع الأسرى سياسة خاصة بدأها النبي عليه السلام في معاملته أسرى بدر حيث أوصى صحابته رضي الله عنهم خيراً بالأسرى[٧]، وقد كان يفادي فيهم على قدر مالهم، ومنهم من افتدى نفسه بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة[٨]، وهناك من جعله الرسول (ﷺ) يذهب من أسرى بدر لقلة ماله وكثرة عياله[٩].

إلاّ أن ما حصل لبني قريظة يقع تحت طائلة الفتح عنوة، وشروطه معروفة، فضلاً عن خيانتهم للرسول عليه السلام في أحرج أوقات الحرب، ما يجعلهم في خانة

---

(١) السهيلي، الروض الأنف، ج٣، ص٢٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٦.

(٣)الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٩٦.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج٣، ص٣٤. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢، ص٦٨.

(٥) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢٩٦. السهيلي، الروض الأنف، ج٣، ص٢٦٧.

(٦) الملاح، هاشم، موقف اليهود من العروبة والإسلام، ص٥٨-٥٩.

(٧) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢، ص٢٦٥.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٨٧.

(٩) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الإرب في فنون الأدب [نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستا توماس، القاهرة، بلا] ج١٧، ص٦٢.

مجرمي الحرب، والتي تجيز القضاء عليهم. وعلى الرغم من صحة هذا الرأي الذي ينطبق بشكل أساسي على زعماء بني قريظة، فإن الأجدر أن يكون النبي قد قتلهم وأخذ الفدية عن الباقين كما هو متعامل فيه[1]، انسجاماً مع الآية الكريمة: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

أما الموقف من يهود خيبر فهو نموذج آخر من النماذج التاريخية لمواقف الرسول (ﷺ) التي علّق عليها المستشرقون مصورين حالة اليهود في علاقتهم مع المسلمين.

تنبع مبررات غزوة خيبر من الخطر الذي شكلته على الإسلام والمدينة التي تقع على الطريق بين مكة وخيبر وكلاهما معادٍ، بعد أن أصبحت خيبر مركزاً لتجمع اليهود، ما يعني أن المدينة شبه مطوقة.

كما أن خيبر تتمتع بإمكانيات إقتصادية تؤ هل اليهود فيها لتجييش الجيوش وتمويلها[3] لمعاداة النبي عليه السلام.

وعليه، كانت غزوة خيبر هجومية في ظاهر ها، إلا أنها دفاعية في جوهر ها، يدافع فيها المسلمون عن عقيدتهم ووجودهم.

والجدير ذكره أن بعض اليهود الذين بقوا في المدينة ووادعوا النبي، ساءهم ما سيحدث ليهود خيبر فطالبوا بديونهم لدى المسلمين ليضغطوا عليهم إقتصادياً حتى أنه لم يبق ليهودي حق على مسلم، كما أفلحوا في إيصال أخبار المسلمين الى اليهود بشأن هذه الغزوة[4].

---

(١) يعتبر رودنسون أن المجزرة وقعت ولأسباب سياسية وبسبق أصرار. وأنه لو تركهم النبي (ﷺ) لتجمعوا ضده، ولكن الأموات وحدهم لا يعودون، كما أنه رجل سياسي - أي النبي عليه السلام - ورجال السياسة لا يعيرون للاعتبارات الإنسانية أي مكانة، أنظر: Rodinson, Mohammad, P-214

(٢) سورة الأحزاب، آية ٢٦-٢٧.

(٣) الأمين، عبد محمد، (الإستشراق، والعلاقات الإسلامية اليهودية في السيرة النبوية) مجلة مركز بحوث السيرة، جامعة قطر، العدد ٩، ١٩٩٧، ص٤٢٤-٤٢٥.

(٤) الواقدي، كتاب المغازي، ج٢، ص٦٤١.

وحاول يهود خيبر الاستعانة بغطفان، كما جهزوا حصونهم المنيعة وحرسوها استعداداً للقاء المسلمين الذين فاجأوهم في الموقع المناسب عند الصباح[١]. وتمكن النبي عليه السلام وصحابته رضي الله عنهم من اختراق حصون خيبر المنيعة، حصناً حصناً حتى تبين لليهود أنهم هالكون، عندئذ سألوا الرسول (ﷺ) حقن دمائهم فوافق الرسول (ﷺ) على الفور وصالحهم على نصف أموالهم ولم يُجلهم عن أرضهم.

ولما سمع بهم يهود فدك، بعثوا إلى النبي (ﷺ) يسألونه الصلح وحقن الدماء ففعل[٢].

وحاصر وادي القرى التي حاولت المقاومة، لكن الخصوم استسلموا عندما أدركوا عجزهم عن المقاومة، وصالحهم النبي عليه السلام على ما صالح عليه خيبر وفدك حيث ترك لهم النخل والأرض وعاملهم عليها[٣].

كما صالحه أهل تيماء على الجزية أسوة بغيرهم فأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم[٤].

بعد هذا الاستعراض، نجد ان عملية اجلاء اليهود من المدينة وفتح خيبر كانا نتيجة لا سبباً. فالعلاقة بين المسلمين واليهود خلال مرحلة استقرار المسلمين في المدينة أُسست في البداية تأسيساً مدنياً عن طريق الوثيقة التي صرحت بأنهم جزء لا يتجزأ من مجتمع الدولة العربية الإسلامية الجديدة.

لكن اليهود ظلوا ينظرون إلى الدين الجديد وكأنه تهديد لمصالحهم رغم أنهم كانوا يترقبون ظهور نبي جديد.

والحرب، كما هو معروف، لا سيما إذا لم تحقق عروض السلام التي عرضها الرسول نجاحاً، فحكمها واضح لا سيما الفتح عنوة.

وفي سفر التثنية في التوراة نصٌ يفسر الحالة بشكل آخر، وربما يوضح للمستشرقين في حال انتصار اليهود على المسلمين، لا سمح الله، ماهية تصرفهم.

جاء في السفر: "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها، استدعها للصلح فإذا ما أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون ذلك للتسخير وتستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب رؤوس جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك"[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٤٢. البخاري، صحيح البخاري، ج٣ ص٤٩.

(٢) السهيلي، الروض الأنف، ص٤١-٤٣.

(٣) الواقدي، كتاب المغازي، ج٢، ص٧١١.

(٤) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢، ص٤٥.

(٥) العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح العشرون، الآيات- ١٠-١٥.

ومن هنا ينبغي على المستشرقين دراسة الجذور التاريخية لهذه الأحداث بغية الوصول إلى استنتاجات منطقية.

المبحث الرابع

تعدد زيجات الرسول (ﷺ) وموقف الإستشراق الفرنسي منه

وقف المستشرقون بشكل عام على مسألة زيجات النبي عليه السلام عندما درسوا سيرته وحياته، وشرعوا يصوغون صفات وخصائص نابعة من مجتمعاتهم الأوروبية المتساهلة في العلاقة بين الرجال والنساء.

كما اتخذوا من زواج النبي عليه السلام من زينب بنت جحش رضي الله عنها، مطلقة متبناه زيد بن حارث سبباً للإساءة لمقامه الطاهر، حيث صور الرسول عليه السلام عند البعض بأنه "زير نساء"• وفسر عند البعض الآخر تفسيراً بايولوجياً بمعنى امتلاكه "قوة جبارة وشهوة جامحة" حتى صُوِّر عليه السلام وكأن لا هم له في الدنيا إلا الزواج والرغبة في التسري وإن كان على حساب الآخرين.

والجدير بالذكر أن هذه التفسيرات لم تقتصر على مستشرقي القرون السابقة، بل نجد أنها استمرت إلى العصر الحديث، فنجد مثلا (دي لكمبر) Anne-Marie Delcambre في الكتاب المعنون "محمد" Mahomet[1] باللغة الفرنسية قد اتى في جزء من كتابه على موضوع تعدد الزوجات، حيث ذكر أنه لمن الصعب التصور أن لهذه الشخصية والتي تحمل صفات النبوة أن تولي الحياة الخاصة هذا الاهتمام الكبير.

وما يثير الدهشة والإستغراب أن هؤلاء المستشرقين حمّلوا المسألة أكثر من مضمونها وأهدافها، إذ رأوا أنها حالة يصعب الصفح عنها، مع أن الرسول عليه السلام لم يخرج عن حدود ما جاء في الإسلام الحنيف، أو عن حدود المشروعية التي يرتكز عليها عالم المدنية والتقدم في العلاقات الإنسانية بين المرأة والرجل في عصرنا الحاضر (الزواج). أما الأعداد الهائلة من الأبناء مجهولي النسب فهو أمر لا يجب الخوض فيه، لدى الغرب عموماً، لارتباطه بجزء من الحريات الشخصية، وإنما المهم هو تعدد زوجات النبي!.

• يقول لوبون: إن حب محمد الطاغي للنساء، هو نقطة ضعفه الوحيدة. حضارة العرب، ص١١٢- وأفرد درمنغم فصول باسم بعض زوجات النبي، إضافة لفصل بعنوان الحريم في كتابه (حياة محمد). أما ديمومبين فيرى أن هناك أسباباً فسيولوجية ونفسية لانقسام حياة محمد الزوجية إلى مرحلتين.

Mahomet, pp-68-69

(1) Delcambre,Anne-Marie,Edition Desc lee' de Brouwer, 1999,PP-114,115

وقد استشهدوا بالنص القرآني: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ (١)، وهو أمر لم يحافظ عليه النبي عليه السلام كما يزعمون بدليل تفرده بالزواج بأكثر من أربع نساء، وهذا سلوك يحط من شأن المرأة بشكل عام(٢).

وللرد على مزاعم المستشرقين في هذا المجال، يجدر بنا أن نطلع ولو بشكل سريع على بعض من أحوال المرأة قبل الإسلام.

فقد كانت المرأة• أداة للإستيلاد والإنجاب والخدمة، هذا إذا ما سمح لها بالحياة، وكان الرجل الذي تولد له ابنة كمن يصاب بالعار، فيظل في حيرة من أمره وخجل حتى يغطي التراب كل أثر لجسدها، وقد جاء تصوير هذا الموقف في تأديب من يمارس هذه العادة الشائعة في بعض القبائل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ (٣).

لم يكن هذا الأمر مقصوراً على العرب وحدهم حيث لم يكن لها حرمة في ذلك الزمان عند الكثير من الأقوام(٤).

كما وصفت المرأة في التوراة على "انها شباك وقلبها أشراك ويداها قيود(٥)"، وفي النصرانية اعتبرت "المرأة مطية الشيطان، والعقرب الذي لا يتردد قط عن لدغ أي إنسان"(٦).

وفي عام (١٥٨٦م) عقد اجتماع في فرنسا لبحث شأن المرأة حول "ما إذا كانت تعد إنساناً أم لا تعد إنساناً، وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان لكنها مخلوقة لخدمة الرجل"(٧).

---

(١) سورة النساء، آية ٣.

(٢) أحد فصول كتاب درمنغم (حياة محمد) عنوانه - الحريم - وتمنى درمنغم في نهاية الفصل لو أن النبي لم يجعل من نفسه قدوة في هذا الأمر، ص٣٢٣.

• وهذا لا يعني أن المجتمع العربي كان خالياً من النساء اللواتي استطعن أن يتفوقن ويتميزن في الحياة الفكرية والثقافية، وقد اشتهرت أسماء كثيرات وفي مجالات الحياة المختلفة، إلا أن هذا التفوق كان قدرة جبارة وموهبة فذة ذاتية استطاعت أن تفرض نفسها على مجتمعها برغم التقاليد.

(٣) سورة التكوير، آية ٨-٩.

(٤) لوبون، غوستاف،حضارة العرب، ص٤٠٣.

(٥) العهد القديم، سفر الجامعة،الإصحاح ٢٧، آية ٢٦.

(٦) أبو خليل، شوقي، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، [منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، طرابلس، ١٩٩١] ص١٥١.

(٧) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، الإسلام [ط٥، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٧] ص٢١٣.

وتعدد الزوجات أمر عرفته الأديان السماوية وغيرها، ومنها التوراة، وأقره الإنجيل إلى أن حرّمته القوانين الوضعية في القرن السابع عشر(١).

وارتبطت مسألة تعدد الزوجات عند الأنبياء بأمور عديدة وأهداف إنسانية ومضامين وأبعاد إجتماعية وسياسية وبغايات وأهداف الرسالات السماوية التي كلفوا بإبلاغها للبشر. فإبراهيم عليه السلام لم يحظ بزوجة واحدة فقط، وكذلك يعقوب عليه السلام وداوود وسليمان الذي تذكر المصادر التاريخية عنه أنه جاوز في زيجاته المئة(٢).

والمعروف أن الإسلام أخرج المرأة من مجتمع الظلمات إلى مجتمع الهداية، بدءاً بمنع وأدها، مروراً بحسن معاملتها ومعاشرتها، وانتهاءً بإقرار حقوقها وحفظها، وقد حفل كل من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما يؤكد نظرة الإسلام الخاصة والمتميزة إيجابياً عن المرأة، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٣)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٥).

وقد شرّع الإسلام للمرأة حقوقها في الميراث والملكية بجميع أشكالها، وكذلك حقها في طلب العلم الذي يجعلها مطمئنة هانئة، كما أباح لها أن تشترط على زوجها حين العقد أن لا يتزوج عليها، كما شرع لها الحق في التخلص من الحياة الزوجية إذا وقع عليها الضرر والأذى(٦).

وفي عهد الرسالة، قامت المرأة العربية المسلمة بأدوار خطيرة، فقد شهدت العقبة، ومعارك الإسلام الكبرى كبدر وأحد وحنين، وداوت جرحى المسلمين،

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٢.
(٢) جبري، عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ج١، ص٢٦٠.
(٣) سورة الروم، آية ٢١.
(٤) سورة النساء، آية ٧.
(٥) سورة النساء، آية ١٩.
(٦) أبو خليل، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، ص١٥٠.

وروت الحديث النبوي الشريف[١]، وغير ذلك من المهمات الرائدة التي فاقت فيها المرأة الأوروبية، لا في العصور المظلمة الأوروبية بل في العصر الحديث.

وبهذه المكانة التي حظيت بها المرأة في الإسلام، لا يمكن أن تكون فكرة تعدد الزوجات مبنية على أساس نظرة دونية لها أو مجرد علاقة عابرة كما هو سائد في أوروبا خاصة إذا علمنا أنها مشروطة بالعدل ومحكومة بظروف ومبررات مختلفة ومتنوعة.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد كانت زيجاته بأمر من الله عز وجل لحكمة لا نعلم منها إلا اليسير ولها أبعاد عديدة مهمة في إصلاح المجتمع العربي الإسلامي الذي شهد قبل الإسلام تساهلاً في العلاقات الزوجية. ففي حديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: "ما تزوجت شيئاً من نسائي ولا زوجت شيئاً من بناتي إلا بإذن جاءني به جبريل عن ربي عز وجل"[٢].

أما عن زوجات النبي (ﷺ) فقد كانت:

- أولى زوجاته (ﷺ) كانت أم هند خديجة الطاهرة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزي بن قصي القرشية الأسدية، كنيت بولدها من أبي هالة مالك بن الذباش بن زرارة، وقد كانت قبله عند عتيق بن عبدالله بن عمر بن مخزوم[٣]، وقد كانت من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وصفتها هذه دفعت الكثيرين من أبناء قومها لخطبتها والزواج منها، لكن السيدة خديجة وبعد أن أخبرها ميسرة عن أمانة محمد (ﷺ) وعظمته خلال خروجه في تجارتها إلى الشام، وكانت سيدة لبيبة حازمة وشريفة، بعثت إلى النبي (ﷺ) وقالت له: "يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك مني وشرفك في قومك وسطتك فيهم وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها"[٤]. ويروي ابن سعد في الطبقات أن السيدة خديجة أرسلت نفيسة بنت منبه وسيطة لتعرض عليه نفسها وفعلت[٥].

وقد تزوجها الرسول (ﷺ) وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة رضي الله عنها يومئذ في الأربعين[٦]. وقد ولدت له القاسم وعبدالله ثم زينب ثم أم كلثوم وفاطمة

---

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، ص١١٤.

(٢) الهمزاني، أبي شجاع ابن شيرويه (ت٥٠٩هـ/١١١١م)، الفردوس في مأثور الخطاب، تحقيق السعيد بن زغلول [ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦]ج٤، ص٣٣.

(٣) الكتاني، عز الدين أبي عمر عبدالعزيز بن نورالدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبدالله (ت٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) المختصر في سيرة سيدنا رسول الله، تحقيق آسيا علي الزهري [الدار العربية، بغداد، ١٩٩٠] ص٩٦.

(٤) ابن اسحاق، المبتدأ والنعت والمغازي، ج١، ص٦٠.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٣.

ورقية وقد توفى الذكور في مكة، ولم يختلف الرواة في أن الرسول (ﷺ) لم يتزوج قبل الإسلام غير خديجة ولا تزوج عليها أحداً من نسائه حتى ماتت[١]. ويقول ابن سعد في طبقاته: "وقد أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أول من أسلم خديجة"[٢]. وهكذا تزوج النبي عليه السلام خديجة وهو في ريعان شبابه ومع ذلك ظلت خديجة رضي الله عنها وحدها زوجته ما يزيد عن خمسة وعشرين عاماً حتى تخطى الخمسين عاماً ولم يشرك معها زوجة أو أمة ولو شاء خلال هذه السنين لارتبط بالكثير من النساء في وقت كانت فيه النساء تبدين زينتهن ولم يكن قد ضرب عليهن الحجاب، دون أن يكون ذلك خروجاً على العرف أو المألوف في البيئة العربية آنذاك[٣].

واستمر هذا الزواج الهادئ الهانئ كل هذه السنين، وليس من الطبيعي أن ينقلب محمد عليه السلام بعد أن اختارته العناية الإلهية وتجاوز الخمسين من عمره، ليفسر موضوع زيجاته بدافع شخصي، أو مجرد رغبة بالنساء، وبما لا يليق بنبي استطاع برسالته أن يغير مجرى التاريخ[٤]. وهكذا مثل زواج النبي عليه السلام من خديجة رضي الله عنها وبقاؤها الزوجة الوحيدة حتى وفاتها، موقف النبي عليه السلام وطبيعته، وذلك قبل نشوء متطلبات الحكمة العملية النابعة من الرسالة ومسؤولياتها لتقرر ظروف وصيغ الزواج التي تمت بالطبع بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، وقد ناهزت الرابعة والستين في مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات[٥]، والتي ظل عليه السلام محباً ووفياً لها، ما أثار حفيظة وغيرة زوجته عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها التي قالت: "ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة"[٦]، كما وصفها النبي (ﷺ) بخير نساء الأرض[٧].

---

(١) ابن عبدالبر، أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي [القسم الرابع، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠] ص١٨١٨-١٨١٩.

(٢) الطبقات، ج٨، ص١٠.

(٣) البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة [ط٧، الدعوة الإسلامية، دمشق، ١٩٧٨] ص٥٧-٥٨.

(٤) هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص٣١٨.

(٥) كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام [ط٣، الرسالة، بيروت، ١٩٧٧]ج١، ص٣٣١.

(٦) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٢٣.

(٧) ابن حجر، شهاب الدين، أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الإصابة في تمييز الصحابة [دار الكتب العلمية، بيروت، بلا] مجلد ٤، ج٨، ص٦٢.

وتجدر الإشارة الى أن النبي عليه السلام تزوج بعدد من النساء بعد السيدة خديجة رضي الله عنها وهن حسب تسلسل أغلب المصادر الإسلامية سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر بن الخطاب، زينب بنت خزيمة، هند بنت أبي أمية، زينب بنت جحش، جويرية بنت الحارث، صفية بنت حيي، أم حبيبة بنت أبي سفيان، ماريا القبطية، ميمونة بنت الحارث، وسيتم تناولهن حسب طبيعة تناول المستشرقين لسيرتهن رضي الله عنهن جميعاً.

ـ سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن مالك ابن حسل" ويقال حسيل" بن عامر بن لؤي، تزوجها النبي عليه السلام بعد وفاة خديجة في مكة[١].

أرملة ابن عمها السكران بن عمرو من المهاجرين إلى الحبشة توفي عنها في مكة مسلماً[٢]، ولم يرو في التاريخ أنها كانت ذات جمال باهر أو ثروة عظيمة، أو مكانة إجتماعية عالية، لكي يطمع أو يرغب بها الرسول (ﷺ)، لكنها زوجة رجل من السابقين في الإسلام، تحملت وزوجها المشاق والأذى في سبيل الدعوة الجديدة، وعليه فزواج النبي عليه السلام منها هو تقدير لجهاد زوجها وسمو بها ورعاية لها. وهذا الزواج لا يمكن أن يكون قد تم برغبة دنيوية.

- أما زواج الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام من السيدة عائشة رضي الله عنها، فيروي ابن هشام أن النبي تزوجها وهي بنت سبع سنين أو عشر، ولم يتزوج بكراً غيرها كما هو متفق عليه، وقد زوّجه إياها أبوها[٣]، وفي رواية أخرى لإبن معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: "تزوجني رسول الله (ﷺ) وأنا بنت ست سنين وبنى بي وأنا بنت تسع سنين وقبض وأنا بنت ثماني عشرة سنة[٤].

يقول ابن سيد الناس إن عائشة وأبويها رضي الله عنهما كانا من أحب الناس إلى رسول الله[٥]. فزواج الرسول عليه السلام من عائشة رضي الله عنها كان تأكيداً لصداقته مع صاحبه ورفيق هجرته أبي بكر رضي الله عنه. وكانت عائشة رضي الله عنها تفخر على أزواج النبي بأنه لم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيرها، وأن الوحي كان ينزل عليه وهو عندها، وقد قبض الله نفسه وهو عندها ودفن في بيتها. وحبها للنبي عليه السلام لم يكن يظهر فقط في غيرتها من نسائه بل ظهر جلياً في اختيارها

---

(١) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٦٧.
(٢) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٣٨.
(٣) السهيلي، الروض الأنف، ج٢، ص٢٥٤.
(٤) ابن حجر، الإصابة، مجلد ٤، ج٨، ص١٣٩.
(٥) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج٢، ص٣٠١.

الله ورسوله والدار الآخرة حينما خيرها النبي بينه وبين زينة الحياة الدنيا[١]. والسيدة عائشة رضي الله عنها ممن أكثروا في رواية الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، كما يروى أنها كانت على قدر من الذكاء والفصاحة والبلاغة[٢]. وعن عروة جاء أنها كانت فقهية وهذا ما تعلمته من النبي، أما علمها بالشعر والناس فبفضل والدها أبي بكر رضي الله عنه. أما الطب فتعلمته من الوفود التي أتت رسول الله أيام مرضه حيث تنعت له فتعلمت أن تعالجه[٣].

وهكذا نرى زواجه بالسيدة عائشة في جانبه الأساسي جاء تقديراً وتكريماً للرجل الذي صدقه وآمن به، وتمتيناً لأواصر الجماعة الإسلامية.

- أما قصة زواج الرسول عليه السلام من حفصة ابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقد كان تلبية لرغبة عمر في زواج ابنته بعد أن توفي عنها زوجها خنيس بن حذافة حيث يقول ابن عبدالبر: "لما تأيمت ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة، فغضب من ذلك عمر ثم عرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله (ﷺ) فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم، فانطلق عمر إلى رسول الله عليه السلام فشكا إليه عثمان وأخبره بعرضه حفصة عليه، فقال النبي عليه السلام تتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة. ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله (ﷺ)[٤].

ويروى أن عمراً حثا التراب على رأسه عندما سمع أن الرسول عليه السلام طلق حفصة وقال "ما يعبأ الله بعمر وابنته"[٥]، ثم يأتي أمر الله عبر جبريل عليه السلام إلى الرسول (ﷺ)، "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر، ثم أراد أن يطلقها ثانية فقال له جبريل لا تطلقها فإنها صوامة قوامة"[٦]. ومن تأديب عمر لابنته عندما علم أنها تراجع النبي ويظل يومه غضبان فقال لها: "والله لقد علمت أن رسول الله عليه السلام لا يحبك ولولا أنا لطلقك"[٧].

---

(١) ابن سعد الطبقات، ج٨، ص١٣٣، انظر كذلك: كحالة، عمر، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج٣، ص١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٩.

(٣) الأصبهاني، أبي نعيم أحمد بن عبدالله (ت٤٣٠هـ/١٠٣٩م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧] مجلد ١-٢، ص٥٠.

(٤) الاستيعاب، ج٤، ص١٨١١.

(٥) ابن سيد الناس،عيون الأثر في فنون الغازي والشمائل والسير، ج٢، ص٣٠٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٠٢.

(٧) هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص٤٤٥.

يفهم مما تقدم أن زواجه من حفصة لم يكن لغاية دنيوية جسدية وإنما لغاية أسمى من ذلك تتصل بفكرة تقدير أصحابه وإعلاء شأنهم وتوثيق الروابط معهم.

ـ تزوج رسول الله عليه السلام من زينب بنت خزيمة الهلالية من بطون هوازن والملقبة بأم المساكين، بعد أن مات عنها زوجها عبيده بن الحارث شهيداً يوم بدر[١]، ولم تلبث كثيراً في بيت النبوة وقد أدركها الموت[٢]، وكانت أول من مات من نسائه في المدينة[٣]. عرفت بطيبتها وإحسانها للفقراء لذلك كان لقبها "أم المساكين".

وكما يبدو أن هذا الزواج كان تضميداً لجراح إمرأة مسلمة، وتقديراً لشهادة زوجها في سبيل الإسلام. وتلتقي الغاية من زواج النبي (ﷺ) بزينب الهلالية بغاية زواجه من أم سلمة.

- هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية التي كانت زوجة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم، وقد هاجر وزوجته إلى الحبشة ومنها إلى المدينة في ما بعد. وتوفي متأثراً بجراحه في معركة أحد، زاره النبي وهو على فراش الموت وظل يدعو له بالخير إلى أن مات[٤].

تزوجها الرسول في السنة الرابعة للهجرة[٥]، واهتم بتربية ابنتها، فشبت في رعايته وتكفل بتزويجها[٦].

ـ ولزواجه عليه الصلاة والسلام بأم حبيبة حكمة أخرى مهمة، فهي بنت أبي سفيان زوجة عبدالله بن جحش. هاجرا إلى الحبشة معاً، مات زوجها فيها بعد أن تنصر وارتد عن الإسلام، وقد ثبتت على إسلامها مع ابنتها[٧]، شاعرة بالخزي، فوالدها من جهة هو أبو سفيان الذي يعلن حرباً على النبي (ﷺ) غير قادرة على العودة إلى مكة، وزوجها ارتد عن الإسلام[٨]. فبعث النبي عليه السلام يخطبها من النجاشي، الذي أمهرها وبعث بها عروساً إلى المدينة[٩]، فدخل بها النبي عليه السلام في السنة السابعة للهجرة وقد قاربت الأربعين من عمرها، ونقل عن ابن عباس قوله إنه حين تزوجها النبي (ﷺ)

---

(١) ابن سعد الطبقات، ج٨، ص٨٢.
(٢) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٥٣.
(٣) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤١.
(٤) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤٢.
(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٢.
(٦) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٥٤. انظر كذلك: بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، نساء النبي [دار المعارف، طبعة خاصة، القاهرة، ١٩٧٣] ص١٤٩.
(٧) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤٢.
(٨) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٩٢٩، بنت الشاطئ، نساء النبي، ص٢٦٠.
(٩) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٧٠.

نزل قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١). وبلغ من إجلال أم حبيبة للنبي عليه السلام أنها لم تسمح لأبيها أن يجلس على فراش النبي، حيث طوت الفراش حين جاء لزيارتها، وعندما سألها عن ذلك قالت له إنه فراش النبي وأنت رجل مشرك(٢).

ـ على إثر غزوة خيبر وانتصار المسلمين فيها، وقعت في الأسر صفية بنت حيي بن أخطب اليهودية وكانت زوجة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق الذي قتل أثناءها، فأعتقها الرسول عليه السلام وجعل عتقها صداقها(٣). ويقول ابن حجر إن نسبها يعود إلى ذرية هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام. وقد أسلمت وحسن إسلامها(٤). ويروي ابن سعد: "وقد أخبرنا محمد بن عمر فقال حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفية إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال لها لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله فقالت يا رسول الله إن الله يقول لا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله (ﷺ)، اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقين بقومك، فقالت يا رسول الله لقد هديت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية إرب وما لي فيها والد ولا أخ وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب لي من العتق وأن أرجع إلى قومي، قال فأمسكها رسول الله (ﷺ) لنفسه"(٥).

هذه القصة فيها من الدلالات الإنسانية الكثير، إذ تنطوي على رفض التميز إلا على أساس تقوى الله ومن التسامح والكرم لأنها ابنة أحد زعماء اليهود الذين ناصبوا الرسول العداوة، وفيها دعوة للسلام لأنها الأسيرة التي خيرها الرسول عليه السلام بين زواجه منها أو الالتحاق بقومها، وقد ظل النبي عليه السلام يحيطها بالرعاية حتى وفاته، كما بادلته نفس الوفاء والإخلاص(٦).

ـ تشابهت قصة صفية بنت حيي مع قصة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن خذيمة الخزاعية المصطلقية. فقد روى ابن اسحاق عن الزبير عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس أو لإبن عم له

---

(١) سورة الممتحنة، آية ٧.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٢.

(٣) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤٦.

(٤) الإصابة، مجلد٤، ج٨، ص١٢٦. ويروي ابن حجر أنها كانت عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة ابن الربيع.

(٥) الطبقات، ج٨، ص٨٨.

(٦) ابن حجر، الإصابة، مجلد ٤، ج٨، ص٤٤.

فكاتبته على نفسها، فأتت رسول الله (ﷺ) تستعينه في كتابتها، وأخبرته أنها جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد سألها إذا كانت توافق بأن يتزوجها النبي عليه السلام، ويؤدي عنها كتابتها، فوافقت على هذا التكريم، وتزوجها الرسول عليه السلام، فلما بلغ ذلك الناس، قالوا أصهار رسول الله (ﷺ)، فأرسلوا ما كان بأيديهم من بني المصطلق، فلقد أعتق الله بها مائة من أهل بني المصطلق[١].

وهكذا أكرم النبي بني المصطلق ومسح ما كان من ويلات الحرب وآلامها، فهذه هي المصاهرة الشريفة.

ـ ماريا القبطية التي جاء في التاريخ أنها كانت هدية من المقوقس للنبي تزوجها بملك اليمين[٢]، والوحيدة التي ولدت له إبراهيم الذي توفي بعد ثمانية عشر شهراً، ولاقت من النبي (ﷺ) كل رعاية وعطف ومحبة.

ــ وكانت آخر من تزوج النبي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية المضرية، فقد تأيمت من أبي رحيم[٣]، وتزوجها الذبي حسب رواية ابن سعد في السنة السابعة للهجرة وقد زوجه إياها العباس بن عبدالمطلب وكان ولي أمرها حيث كان زوج أختها أم الفضل[٤]، ويروى أنها من وهب نفسه للنبي وسماها ميمونة بعد أن كان اسمها برة[٥]. وقد أنزل الله تعالى فيها قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ [٦]، وهي خالة خالد بن الوليد وعبدالله بن عباس[٧]، وقد عكس زواج النبي عليه الصلاة والسلام من ميمونة تقديره لعمه العباس، وخرج من مكة بعروس من أشرف نساء قريش بقوة العقيدة، بكل ما لهذا الحدث من تأثير نفسي على القريشيين بعد أن دخل محمد عليه السلام مكة وطنه

---

(١) ابن اسحاق المبتدأ والمبعث والمعازي، ج٥، ص٢٤٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦. ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٠٤. ابن حجر، الإصابة، مجلد٤، ج٨، ص٤٤.

(٢) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤٥، ابن سعد الطبقات، ج٨، ص٨٨. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦.

(٣) ابن اسحاق، المبتدأ والمبعث والمغازي، ج٥، ص٢٤٥.

(٤) ابن سعد الطبقات، ص٩٣. وأم الفضل زوجة العباس وهي لبابة بنت الحارث وقيل إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة، الإصابة، ج٨، ص٢٢٦.

(٥) السهيلي، الروض الأنف، ص٢٥٥. ابن عبدالبر، الاستيعاب، ص١٩١٦، ابن حجر، الإصابة، ج٨، ص١٩١، ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص٥٤٥.

(٦) سورة الأحزاب، آية ٥٠.

(٧) ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ/ ١٠٢٤م) جوامع السيرة النبوية [علوم القرآن، دمشق، ١٩٨٤] ص٢٣.

الغالي مؤدياً العمرة ومزهواً بفرحة النصر المرتقب حينما تفتح أبواب مكة للإسلام وإلى الأبد.

ـ أما زواج النبي (ﷺ) من زينب بنت جحش، فقد آثار قريحة المنافقين في التاريخ الإسلامي والمستشرقين عامة والفرنسيين على وجه التحديد واستفزت خيالهم•، وقد كشف بوضوح الإنتقائية في اعتماد أحداث السيرة على وفق ما وردت في المصادر الأصلية.

وهي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبره بن مرة الأسدية وهي ابنة عمة الرسول (ﷺ)، فأمها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم(١).

يقول ابن سعد في طبقاته: "قدم النبي (ﷺ) المدينة وكانت زينب ممن هاجر مع رسول الله (ﷺ)، ... فخطبها على زيد بن حارثة، فقالت يا رسول الله (ﷺ) لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش، قال فإني قد رضيته لك فتزوجها زيد بن حارثة"(٢). وخضعت زينب لأمر الله ورسوله حيث نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾(٣)، ورغم إذعان زينب لهذا الزواج إلا أن زيداً لم يكن قادراً على قيادتها، بل كانت تفخر عليه دائماً بحسبها وأنها لم يجر عليها رق، فاشتكى زيد إلى النبي غير مرة من سوء معاملتها إياه، وقد استأذنه غير مرة في تطليقها لكن النبي كان يجيبه دائماً بعبارة أمسك عليك زوجك واتّق الله(٤)، ولكن زيداً لم يطق معاشرة زينب وتفاخرها عليه طويلاً فطلقها. "وقد أراد الشارع الحكيم أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابهم ومن إعطاء الداعي جميع حقوق الإبن، التي كان فيها الميراث وحرمة النسب(٥).

وقد أنزل الله تعالى قوله في ذلك: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾(٦).

• أفرد درمنغم فصلاً كاملاً في كتابه "حياة محمد" تحت عنوان زينب، ص٢١٩. ويذكر هذا الموضوع هنري ماسييه في كتاب الإسلام، ص٥١.

(١) بن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٥٩.

(٢) الطبقات، ص٩٣. كذلك انظر: الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٢، ص٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٧٣. بنت الشاطئ، نساء النبي، ص١٦٨.

(٥) هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص٣٢٤.

(٦) سورة الأحزاب، الآية ٤.

وإزاء هذا الأمر الرباني لن يكون من هو قادر على كسر تقاليد الأجيال و هو يعلم ما يدور في نفوس العرب في خرق هذه العادة، غير النبي عليه السلام، فلذلك كان هذا الزواج، كما كان تكريماً لإبنة عمة النبي زينب التي نفذت أمر الله في زواج لم تكن راغبة فيه، فقد جاء أمر الله في هذا الزواج في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ (١)، وهكذا كان زواج النبي من زينب بنت جحش في السنة الخامسة للهجرة(٢). وقد كانت أول نسائه لحوقاً به حيث توفيت في خلافة عمر بن الخطاب(٣). ويروى "عن عائشة أنها ذكرت زينب بنت جحش فقالت: ولم تكن امرأة خيراً منها في الدين، وأتقى لله تعالى وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد تبذلاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب به إلى الله عز وجل"(٤).

يتبين مما تقدم أن زينب لم تكن بعيدة عن نظر النبي و هي ابنة عمته، و من المهاجرات إلى المدينة، وفرض عليها الزواج من زيد على الرغم مما في هذا الأمر من عار لدى العرب (كون زيد رقيقاً معتوقاً) إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام ونظراً إلى حبه لزيد أراد أن يزيل هذه الاعتبارات العصبية من النفوس(٥). ثم انه كان يمكن أن يخطبها لنفسه لو كان معجباً بها ولما كان اضطر لأن يكرهها على الزواج من زيد.

ومن المهم أن نوضح أن المستشرقين أغفلوا سمو الأنبياء• فوق نواميس الطبيعة في الكثير من الأمور(٦)، ومنها هذا الموضوع الذي اتبعوا فيه الروايات

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧. وفيها أيضاً "وتخفي في نفسك ما الله مبديه"، ويبدو أن بعض المستشرقين استند إلى هذه الآية في تأويل الموقف على غير حقيقته، في حين أن تفسيرها وكما جاء عند ابن كثير: إن رسول الله عليه السلام كان قد علم إنها ستكون إحدى زوجاته وهذا الذي كان في نفسه. انظر: السيرة النبوية، ج٣، ص٢٧٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٨١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٧٨.

(٤) ابن عبيد البر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨٨٥٠.

(٥) هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص٢٢٣-٢٤٤. انظر كذلك: عبدالمنعم، شاكر محمود (نموذج من تهافت الاستدلال في دراسات المستشرقين) المنشورة في مجلة المؤرخ العربي، عدد ٣٠، ١٩٨٦، ص٢٩٥.

• إن المستشرقين ليتحدثون عن أنبياء اختارهم الله بطريق الوحي لهداية العالمين ومع أنهم بشر مثلنا إلا أن الله سبحانه وتعالى ميز هؤلاء الأنبياء وحفظهم من الوقوع بالخطأ فكانوا لا ينطقون عن الهوى فالرسول عليه السلام وكما ورد في القرآن الكريم: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

(٦) هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص٣٢٦.

الضعيفة والمدسوسة التي شكلت أرضاً خصبة لخيالاتهم، فأطلقوا لها العنان لتعطي صوراً للقصة تنأى بها بعيداً عن مقاصدها الحقيقية.

وفي ختام هذا البحث، لا بد من الإشارة إلى أن الزواج لم يكن عليه قيود من حيث عدد الزوجات قبل الإسلام وإلى السنة الثامنة للهجرة، حيث نزلت سورة النساء التي قيد فيها عدد الزوجات بأربع كحد أقصى، في وقت كان النبي قد بنى بزوجاته جميعهن. ويمكننا في هذا الإطار أن نسجل بعض المقاصد المبدئية والعملية في مسألة تعدد الزوجات:

١- إشارة الى آية التخيير التي خيرت فيها نساء النبي بين التمتع بالحياة ومباهجها وزينتها أو البقاء زوجات للرسول في حياة متقشفة فيها رضا الله ورسوله[١]، تكشف أن موضوع زوجاته فيه شيء رباني أولاً، لا يمكن أن يصدر عن رجل يتملكه هوى دنيوي لأنه كان يحمل الاستعداد العالي للتخلص منهن بالطلاق إذا ما رغبن عنه. وهذا ما يحمل في طياته دليل نبوة ورسالة سمت عن مقاصد الحياة الدنيوية.

٢- ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام رفض وأد الخصائص الطبيعية الإنسانية باسم الاعتبارات الروحية، ووردت العديد من الأحاديث حول التبتل والإنقطاع للعبادة فقط، إلا أنه عليه السلام كان يصلي ويقعد ويصوم ويفطر ويتزوج النساء وقال: "من رغب عن سنتي فليس مني"[٢]، حق مشروع لحماية النوع البشري.

٣- وتعدد الزوجات في الإسلام يشترط فيه العدل ويرتبط بمبررات مختلفة، ومن جانب آخر أفضل من الطلاق وما قد يسببه من تفكك أوضاع الأسرة[٣]. أما تعدد زوجات النبي عليه السلام ومن بينهن القريشية وغير القريشية، ومنهن اليهودية، الكبيرة والصغيرة والوسط في العمر[٤] فهو يعكس تنوّعاً بحد ذاته ويكشف الحكمة والمقاصد من كل زواج انطلاقاً من أهمية رابطة المصاهرة مع كبار صحابته وبعض القبائل العربية ودورها في توهين حقد المغلوبين إلى تكريم ورعاية زوجات وأبناء الشهداء المسلمين، وفي إعزاز وحماية من كان لهم مكانة في قومهم على مبدأ "ارحموا عزيز قوم ذل".

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص١٣٣.

(٢) صحيح البخاري، ج٣، ص٢٣٣.

(٣) بدوي، عبدالرحمن، الدفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، ترجمة كمال جاد الله [العالمية للكتب، ١٩٩٩] ص٧١.

(٤) حوى، سعيد، الرسول (ﷺ) [ط٤، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٩] ج١، ص١٦٠.

٤- مثّل تعدد زوجات النبي عليه السلام وعلاقته بالمرأة في كل الأحوال إجابات دائمية لكل ما يمكن أن يصادفها من إشكالات. كما كان بعدله وصبره وحسن معاشرته للنساء مثالاً يحتذى به، فجعل مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته[١]، فقال عليه السلام "خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"[٢].

٥- كانت مسألة إيصال الأحكام متيسرة للنساء أكثر من خلال زوجاته اللاتي وصلت عنهن آلاف الأحاديث المروية[٣] عن الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي خطبة الوداع، آخر محطاته الرسالية، أوصى الرسول (ﷺ) بالنساء خيراً فقال: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله"[٤].

استنتاجات وتوصيات

تميزت الدراسات الإستشراقية الفرنسية بشمولها لمختلف جوانب المعرفة الشرقية تاريخاً وحاضراً، كما اتسعت لتشمل أكبر مساحة جغرافية من الشرق، ساعد على ذلك الاتصال الفرنسي المبكر بالعرب والمسلمين، فضلاً عن ذبوغ عدد من المستشرقين بما تهيأ لهم من وسائل مختلفة كالجامعات والمعاهد وغيرها من المؤسسات التي ساهمت في تطور الإستشراق الفرنسي.

ونخلص إلى القول إن الدراسات العربية الإسلامية في فرنسا بقدر ما آلمت الإسلام ونبيه الكريم في تفسيراتها التي لم تتجاوز إتهام وتفسيرات قريش، بقدر ما شجعت المفكرين العرب والمسلمين على اليقظة والتنبه، وإعطاء كل ذي حق حقه.

فهناك فئة من المستشرقين لا نستطيع إلا أن نقدر عطاءها وخدماتها للتراث، فجمع المخطوطات، وتحقيق الكثير منها، إضافة إلى المعاجم المفهرسة، الكم الهائل من المعلومات في دائرة المعارف الإسلامية على الرغم مما تحويه من إضطراب، هي نتاجات شاهدة على ذلك الجهد الذي بُذل في إعدادها، بالإضافة إلى المطابع، والمجلات، والمؤتمرات الدولية.

---

(١) حوى، سعيد، الرسول (ﷺ)، ج١، ص١٦١-١٦٢.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٩٧هـ/٩٠٩م)، السنن، تحقيق أحمد محمود شاكر وآخرون، [دار احياء التراث العربي، بيروت، بلا] ج٥، رقم الحديث ٣٨٩٥، ص٧٠٩.

(٣) علي، مولانا محمد، حياة محمد ورسالته، ترجمة منير البعلبكي [ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧] ص٢٥٨.

(٤) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥م) الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي [دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا] ج٢، ص٨٨٩، باب حج النبي، رقم الحديث ١٢١٨.

وقد تراوحت مواقف الكُتاب والمفكرين العرب والمسلمين من الكتابات الإستشراقية الفرنسية في موضوع السيرة النبوية الشريفة بين الرفض باعتبارها إساءة ودس وتشويه، وبين القبول المتأثر باتجاهاتهم وأفكارهم، ويتوسط هذين الموقفين ذلك الذي ينظر بإيجابية وبعين فاحصة وناقدة تمييزاً للغث عن السمين.

فالفريق الرافض يعتبر الإستشراق علماً أدبياً يعبر عن صورة ما توصل إليه الغير في معرفة الشرق، واعتبر ان كتابات المستشرقين في موضوع السيرة النبوية الشريفة بشكل عام لا تختلف عن بعضها إلا في الدرجة وليس في النوع[١] "وإن أي مستشرق مهما اطلع واتسعت ثقافته واعتدلت مواقفه ونزع نحو الموضوعية، فإن لا بد في تحليله لموضوع السيرة أن يرتطم هنا أو هناك بوقائعها وبداهاتها ومسلماتها، فيخالف بعضاً من حقائقها ويمارس متعمداً أو غير متعمد تزييفاً لروحها وتمزيقاً لنسيجها العام"[٢].

لقد اعتبر هذا الفريق ان عمل الدارسين للإسلام ولسيرة النبي ﷺ ينطوي على نزعتين، الأولى تمكين الإستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، وتمهيد الذفوس لقبول النفوذ الأوروبي من خلال إضعاف القيم الإسلامية والتشكيك برموزها، مقابل تمجيد القيم الغربية المسيحية.

أما الثانية فهي "تأكيد ذلك الحقد الصليبي الذي مثله المستشرقون الفرنسيون في كتاباتهم التي تنم عن حقد على المسلمين وعن سخرية وتهكّم برسول الله محمد ﷺ"[٣].

لقد انتقد أنصار هذا الرأي بعض المفكرين والكتّاب العرب والمسلمين الذين اعتبروا أعمال المستشرقين اكتشافات علمية، وبالغوا بالثناء على جهودهم، وحّملونا ديناً لهم لما حققوه من إنجازات علمية، في حين – يضيف أصحاب الرأي الرافض – ان هذه الأعمال ليست من اكتشافات المستشرقين، بل أن المحدثين كانوا سباقين في استخدام هذه المناهج[٤]، كما أن دائرة المعارف التي رأى فيها بعض الكّتاب أنها عمدة للدارسين تنطوي على الكثير من الأخطاء والمغالطات، لذا هي غير جديرة بكل هذا الإطراء.

ويضيف هذا الفريق ان المستشرقين الذين كتبوا في السيرة النبوية الشريفة، وعندما اضطروا للإعتراف بالرسالة، ربطوا اعترافهم بأن الديانة الإسلامية التي دعا إليها الرسول ﷺ ديانة محلية تخص العرب فحسب، وليست للناس جميعاً، وهم بذلك يرفضون عالمية التوجه

---

(١) خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية [دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٩م]، ص٨٩.

(٢) خليل، عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية [دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٩م)، ص٩٠.

(٣) البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث صلته بالإستعمار الغربي، [ط٤، دار غريب، ١٩٨١] ص٥٤.

(٤) فرج، أحمد، الإستشراق، النرائع، النشأة، المحتوى [ط١، دارالوفاء، المنصورة، مصر، ١٩٨٧] ص٦١٤.

والتشريع الإسلامي[١]، كما يرفضون أن يكون للعرب أي دور قيادي رائد في حمل مبادئ الإسلام الحنيف وقيمه السامية ونشرها إلى العالم، كما يقللون من شأن اللغة العربية التي انتشرت مع إنتشار الإسلام[٢].

كما يربط أصحاب هذا الرأي بين الاستعمار والإستشراق، حيث شغل العديد من مشاهير المستشرقين مناصب سياسية في وزارة المستعمرات الفرنسية، أمثال دو ساسي ولويس ماسينيون وهانوتو.

وسعى المستشرقون من خلال كتاباتهم الى إضعاف ثقة الأمة بنفسها تمهيداً لارتمائها في أحضان الغرب عبر تشكيكهم بقادة تراثنا الإسلامي وبشخصية النبي ﷺ بشكل مباشر أو غير مباشر[٣].

ويضيف علماؤنا ومفكرونا - مع التأكيد على خطورة كتابات المستشرقين ومقاصدها - عوامل مهمة اعتبروها أساسية في دعم الإستشراق ومساعدته في تأدية دوره الفعّال، أبرزها:

١- الضغط العسكري والسياسي على العرب والمسلمين من خلال دور الصليبية الصهيونية في الشرق، والذي رُسمت خطوطه عبر الأحداث المتتالية خلال قرون من الزمن.

ومما تجدر ملاحظته التركيز على تصوير الجهاد في صدر الإسلام على أنه شكل من أشكال القرصنة والغزو[٤]، تشويهاً بشعاً لمقاصده، وإسقاطاً لاعتباره حقاً وواجباً على العربي والمسلم دفاعاً عن الحقوق المغتصبة وتسفيهاً لمواجهة الباطل بالحق.

٢- السياسات التعليمية التي ركز عليها المستعمرون وأسسوا حيثياتها في الوطن العربي وتركوها بعد مغادرتهم بؤراً تثير الإنقسام والتجزئة الطائفية والعرقية في التعليم والثقافة والتربية، حيث "ركّز الاستعمار الفرنسي في خططه التعليمية والتربوية على فرنسة أقطار المغرب العربي سنة ١٨٧١"[٥] وكذلك الأمر بالنسبة إلى بلاد الشام.

٣- تفاعل بعض الطلبة الدارسين في الجامعات الأجنبية عامة والفرنسية على وجه الخصوص مع المؤثرات الإستشراقية وتأثرهم بأساتذتهم من

---

(١) المطعني، عبدالعظيم، الإسلام في مواجهة الإستشراق العالي، [دارالوفاء، ١٩٧٨] ص٦١٤.

(٢) المطعني، عبدالعظيم، الإسلام في مواجهة الإستشراق العالي، ص٦١٨.

(٣) الشرقاوي، محمد عبدالله، الإستشراق دراسة تحليلية تقويمية، [مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢] ص٦٤.

(٤) صبره، عفاف سيد، المستشرقون ومشكلات الحضارة، [ط٢، دارالفكر، القاهرة، ١٩٩٧] ص٦٦.

(٥) السلاّتي، مصطفى نصر، الإستشراق السياسي، ص١٢٣.

المستشرقين بسبب ضعف حصانتهم وتشربهم تلك المؤثرات، فيعودون أكثر إخلاصاً للغرب من أمتهم، ويتحولون إلى دعاة وتلامذة نموذجيين للأفكار والدعوات التي ينادي بها المستشرقون، لا بل أكثر خطورة[١] من ذلك.

أدت هذه العوامل إلى ظهور إتجاهات عربية وإسلامية عدة منها:

أ- موقف إيجابي من الاستشراق والقبول بآراء المستشرقين وإسهاماتهم، وخاصة في بداية النهضة في مصر وسوريا. يقف خلف هذا التيار أولئك الذين تلقوا العلم في الغرب، وقد اتّسم بالتأثير القوي والمباشر بالمعلومات الواردة عن المستشرقين، وخصوصاً أسلوبهم في تفسير الأحداث الإسلامية، بدءاً بحياة الرسول ﷺ ثم الصحابة رضي الله عنهم، وقادة المسلمين، حتى أصبح الإستشهاد بإنتاج المستشرقين دليلاً على سعة ثقافتهم وأفقهم، داعمين الرأي بأن المستشرقين قدّموا خدمات جلى للإسلام.

إن وجهة نظر المنبهرين بالإستشراق عامة وبالحضارة الغربية حصراً تنطلق من واقع ان تقبل التقنية الغربية في مجالات كثيرة مختلفة، يحتم قبول ما يقوله الغرب عنا وخصوصاً أنهم يملكون القوة والسلطة ويستخدمون المناهج العلمية ويدعون إلى التحلل من المشاعر القوية والعاطفة الذاتية، وأن ما ينتجه الغرب هو على قدر كبير من الموضوعية والحكمة[٢].

يقول العقيقي: "وإذا وازنّا بين كتاباتهم بتراثنا واكتشافه وصونه وتحقيقه وبين ما قمنا نحن به في سبيله، فرأيناها تكاد تكون متساوية، ووازنّا كذلك بين ترجمة أحدهم وآثاره وبين ترجمة أحد أعلامنا وآثاره فوجدناه يضاهيه خلقاً علمياً وعدد كتبٍ لا غنى لنا عن معظمها في علومنا وآدابنا وفنوننا، ولا سبيل إلى جحد فضلها في فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما في تراثنا من ثراء، ثم على نهضتنا الحديثة التي كانوا من دعائمها"[٣].

ويلاحظ أن هذا الموقف لم يكن نابعاً عن انبهار بالغرب فحسب، إنما هو ناتج عن تزعزع الثقة بالنفس أمام المدنية الأوروبية بكل معطياتها[٤].

ب- موقف المفكرين المتربصين بالمستشرقين والمتسلحين بسلاح المواجهة الفكرية من خلال الأخذ في الحسبان أن الحركة الإستشراقية أثرت سلباً في شريحة كبيرة من المثقفين العرب والمسلمين.

---

(١) قطب، محمد، المستشرقون والإسلام،[مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٩] ص٣٠٨.

(٢) النملة، علي بن إبراهيم الحمد، الإستشراق والدراسات الإسلامية، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٣) المستشرقون، ج٣، ص١١٥.

(٤) النملة، علي بن إبراهيم الحمد، الإستشراق والدراسات الإسلامية، ص٢٠٦.

وعلى العرب والمسلمين أن يتسلحوا بسلاح العلم والمعرفة لتوجيه النقد للمستشرقين الحاقدين، نقداً حقيقياً ومثمراً، والتخلي عن موقف المتفرج المعتدى عليه. ولا بد لنا أن نعترف بأن "الإستشراق يستمد قوته من ضعفنا، وعليه فالمطلوب منا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية"[1]، وأن لا ننجر منبهرين وراء تقدم الغرب تقنياً، ونجعل من الحضارة الغربية الحضارة الأم التي تغدق كرماً على الآخرين، ونفهم الإستشراق من خلال كونه جزءاً من قضية صراع حضاري للحفاظ على هويتنا، وليكن ذلك بعيداً عن الإجحاف بحق من قدم للتراث الإسلامي خدمات مخلصة، ممن عرف عنهم النزاهة من المستشرقين حتى ولو كانوا قلة قليلة.

لقد عرض أصحاب هذا الطرح سبلاً وإمكانات عدة في المواجهة النافعة الناجحة، ولا أعني بذلك مواجهة المستشرقين والرد على الطعون والإفتراءات بحق النبي عليه السلام والإسلام ورموزه فحسب، بل لأن العرب أصحاب رسالة إنسانية، أضاءت شعلتها بظهور النبي ﷺ، وكلفنا الله كأمة أصيلة معطاءة بنشر نورها على العالم أجمع.

---

(١) زقزوق، محمد حمدي، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١٣٣-١٣٤-١٣٦.

إن منهاج العمل للمواجهة يجب أن يقوم على عدد من الأسس أهمها:

أولاً: الاهتمام بمناهجنا التربوية والتعليمية، مع التأكيد على دراسة التاريخ بعيداً عن كل ما شابه، وذلك على يد أساتذة أكفّاء قادرين على تحصين أجيالنا في مواجهة كل الدعوات الهدامة لتاريخنا وتراثنا[١].

ثانياً: ضرورة التعرف الى إنتاجات المستشرقين العلمية، الغث منها والسمين وترجمتها بهدف دراستها إمّا مباشرة وإمّا عن طريق الترجمة، وإعداد مسح لكل النتاجات الإستشراقية يشمل الكتب والمجلات والدوريات، والإستعانة لذلك بالخبراء والعلماء المتخصصين مع نقد المناهج التي اعتمدها المستشرقون، وعرض الشبهات التي رددوها، والتعرف إلى المصادر التي اعتمدوها وبيان أخطائهم العلمية واللغوية والتاريخية، ويعتمد هذا النقد على الأدلة العقلية والنقلية، وأن يتفرغ العدد الكبير المناسب من العلماء للقيام بهذا العمل الكبير[٢]، وأن يكون هذا العمل تحت عنوان "موسوعة الردّ على المستشرقين".

ثالثاً: على العرب والمسلمين أن يتوسعوا في فعالياتهم وأنشطتهم العلمية ويساهموا في المؤتمرات والندوات عن الإستشراق والكتابة في المجلات والدوريات العالمية.

رابعاً: العمل على إصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأجنبية تكون مرجعاً علمياً يضاهي الموسوعات الأجنبية عن الإسلام، إذ لا يعقل أن نعود إلى دائرة معارف أجنبية في كل صغيرة وكبيرة عن الإسلام ديناً والحضارة العربية الإسلامية.

خامساً: ترجمة إسلامية دقيقة لمعاني القرآن الكريم والأحاديث النبوية[٣] الشريفة، وتأليف الكتب في السيرة النبوية بالاعتماد على مصادرها الأصلية والروايات المتفق عليها والبعيدة عن الدس وبلغات مختلفة.

سادساً: تأسيس ودعم المؤسسات العلمية والأكاديمية التي تؤدي دوراً بحثياً وإعلامياً، بالإضافة إلى دور رئيس في تبني ونشر نتاجات علمائنا، والاتصال بالهيئات الإستشراقية العالمية.

سابعاً: إقامة معاهد وأقسام في الجامعات تكون متخصصة في الدراسات الإستشراقية، تمنح الدارسين درجات علمية عالية. وإنه لمن المستغرب أن جامعاتنا لم

---

(١) صبره، عفاف سيد، المستشرقون ومشكلات الحضارة، ص٢٤٠.

(٢) السائح، أحمد عبدالرحيم، الإستشراق في ميدان نقد الفكر الإسلامي، ص٢٧٠.

(٣) النملة، علي إبراهيم بن الحمد، الإستشراق والدراسات الإسلامية، ص٢٢٨-٢٢٩.

تعمل على إنشاء أقسام الدراسات الإستشراقية، في حين نجد أن جامعات أوروبا وأميركا تزخر بآلاف المعاهد التي تدرس الشرق وتراثه[1].

(١) السائح، أحمد عبدالرحيم، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ص٧٤.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية الأصيلة:

١- القرآن الكريم.
٢- الكتاب المقدس.
- ابن الأثير، ابوالحسن عز الدين علي بن محمد (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م).
٣- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
٤- أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار احياء التراث، بيروت، ١٩٥٨.
- ابن اسحاق، محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي (ت١٥١ هـ/٧٦٨م).
٥- المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الله، مطبعة محمد الخامس، فاس، المغرب، ١٩٧٦.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م).
٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.
٧- دلايل النبوة، عالم الكتاب، بيروت، بلا.
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م).
٨- صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت - بغداد، ١٩٨٦م.
- البيهقي، ابو بكر أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م).
٩- السنن الكبرى، ط١، دائرة المعارف، الهند، ١٩٣٧.
- الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٩٧هـ/٩٠٩م).
١٠- السنن، تحقيق أحمد محمود شاكر وآخرون، دار احياء التراث العربي، بيروت، بلا.
- ابن حزم، ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣).
١١- جوامع السيرة النبوية، دار علوم القرآن، دمشق، ١٩٨٤م.
- ابن حجر، أبوالفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م).
١٢- الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا.
- ابن دحلان، أحمد بن زيتي (١٣٠٤هـ/١٨٨٧م).
١٣- السيرة النبوية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- الذهبي، شمس الدين ابوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
١٤- التاريخ الكبير، تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة، مطبعة دارالكتب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- الرازي، محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر (ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م).
١٥- مختار الصحاح، المركز العربي، بيروت، بلا.

- الزبيدي، محب الدين ابي الفيض السيد محمد مرتضى.
(ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م).
١٦- تاج العروس، تحقيق عبدالكريم غرباوي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٧م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م).
١٧- الطبقات الكبرى، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٤م.
- السهيلي، أبو قاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي (ت٥٨١هـ/١١٨٥م).
١٨- الروض الأنف في تفسيره السيرة النبوية، الكليات الأزهرية، القاهرة، بلا.
- ابن سيد الناس، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد بن أحمد عبدالله بن يحى (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٤م).
١٩- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- الطبري، أبوجعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م).
٢٠- تاريخ الأمم والملوك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا.
- ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
٢١- الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر، ١٩٦٠م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١هـ/١١٧٥م).
٢٢- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ط٢، دار المسرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م).
٢٣- القاموس المحيط والقاموس الوسيط في اللغة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
- الكناني، عز الدين ابي عمر عبدالعزيز بن نور الدين محمد بن عبدالله (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م).
٢٤- المختصر في سيرة سيدنا رسول الله، تحقيق اسيا علي الزهري، الدار العربية، بغداد، ١٩٩٠م.
ـ ابن كثير،عماد الدين ابو الفداء اسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
٢٥- البداية والنهاية، ط١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٦- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الحافظ مسلم، ابو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ/٨٧٥م).
٢٧- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا.

- المسعودي، أبوالحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م).
٢٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الباقي، ط٤، السادة، مصر، ١٩٦٤م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت٧١١هـ/١٣١١م).
٢- لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م).
٣٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستا توماس، القاهرة، بلا.
- ابن هشام أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ/٨٣٣م).
٣١- سيرة النبي (ﷺ)، تحقيق محمد محي الدين عبدالباقي، مطبعة المدني، القاهرة، بلا.
- الهمذاني، أبو شجاع شيرويه (ت٥٠٩هـ/١١١٥م).
٣٢- الفردوس في مأثورالخطاب، تحقيق السعيد بن زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م).
٣٣- المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.

ثانياً: المصادر الحديثة

أركون، محمد وآخرون.
٣٤- الإستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح، ط١، الساقي، بيروت، ١٩٩٤م.
- البستاني، فؤاد افرام.
٣٥- دائرة المعارف، بيروت، ١٩٧٧.
البستاني بطرس.
٣٦- محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت.
ـ بارت، رودي.
٣٧- الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- البوطي، د. محمد سعيد رمضان.
٣٨- فقه السيرة، ط٧، شباب الأزهر، دمشق، ١٩٧٨م.

- بالطا، بول. وكلودين ريللو.
٣٩- سياسة فرنسا في البلاد العربية، ترجمة كامل فاعور ونخلة حريز، دارالقوس، بيروت.
ـ بالمر، الآن.
٤٠- موسوعة التاريخ الحديث، ترجمة فيصل السكر ويوسف محمد أمين، بغداد، ١٩٩٢م.
- البغدادي، جلال الحنفي.
٤١- شخصية الرسول الأعظم قرآنياً، ط١، دار الحرية، بغداد، ١٩٩٧م.
ـ بروكلمان، كارل.
٤٢- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٤٨م، أعيد طبعها ١٩٩٨م.
- بدوي، عبدالرحمن.
٤٣- موسوعة المستشرقين، ط٢، دارالعلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.
٤٤- دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدرة، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية، ١٩٩٩م.
- بوازار، مارسيل.
٤٥- الإسلام اليوم، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، اليونسكو، ١٩٨٦م.
- باقر، طه.
٤٦- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط٣، الحوادث، بغداد، ١٩٧٣م.
- البهي، محمد.
٤٧- الفكر الإسلامي الحديث، صلته بالإستعمار الغربي، ط٩، دار غريب، القاهرة، ١٩٨١م.
- بلاشيير، رجي.
٤٨- القرآن ــ نزوله ــ تدوينه، ترجمته، تأثيره، ترجمة رضا سعادة، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.
- توتل، فردیناد.
٤٩- المنجد في العلوم، بيروت، ١٩٥٦م.
- جبري، د. عبدالمتعال محمد.
٥٠- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط١، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، ١٩٨٨م.
٥١- الاستشراق وجه للإستعمار الفكري، مكتبة وهبي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- جحا، د. ميشال.

٥٢- الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
- جبرا، يوسف.
٥٣- تاريخ دراسة اللغة العربية في أوروبا، مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الجليند، د.محمد السيد.
٥٤- الإستشراق والتبشير، قراءة تاريخية موجزة، زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الجندي، أنور.
٥٥- الإسلام في غزو جديد للفكر الإنساني، مطبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- جعيط، هشام.
٥٦- أوروبا والإسلام، ترجمة طلال عزت، ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م.
- حوى، سعيد.
٥٧- الرسول (ﷺ)، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.
- الحيدر أبادي، د. محمد حميد الله.
٥٨- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
- الحديثي، د. نزار عبداللطيف.
٥٩- الأمة والدولة في سياسة النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٧م.
- الحاج، د. ساسي سالم.
٦٠- الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م.
- حمدان، نذير.
٦١- الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، ط٢، دار المنار، جدة، ١٩٨٦م.
- الحميد، سالم محمد.
٦٢- الحروب الصليبية، ط١، دار الشؤون، بغداد، ١٩٩٤م.
- حسن محمد عبدالغني.
٦٣- الإسلام بين الأنصاف والجحود، العالم العربي، القاهرة، بلا.
- حداد، د. جورج.
٦٤- المدخل إلى تاريخ الحضارة، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٨م.
- خميش، د. سالم.
٦٥- الإستشراق في أفق إنسداده، ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩١م.

- الخربوطلي، د. علي حسن.
٦٦- المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٨م.
- أبوخليل، د. شوقي.
٦٧- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ١٩٩١م.
- خليل، د. عماد الدين.
٦٨- المستشرقون والسيرة النبوية، دارالثقافة، الدوحة، ١٩٨٩م.
- دينييه، اتيان وسليمان ابراهيم.
٦٩- محمد رسول الله، ترجمة عبدالحليم محمود، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ديورانت، ديل.
٧٠- قصة الحضارة، ترجمة فؤاد اندراوس، ط١، دار الجيل، ١٩٨٨م.
- دو كاستري، هنري.
٧١- الإسلام سوانح وخاطر، ترجمة أحمد فتحي زغلول، السعادة، مصر، بلا.
- ديمومبين، جودي فروا.
٧٢- النظم الإسلامية، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر، بغداد، ١٩٥٢م.
- درمنغم، أميل.
٧٣- حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.
- رضا، الشيخ أحمد.
٧٤- معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م.
- رودنسون، مكسيم.
٧٥- جاذبية الإسلام، ترجمة الياس مرقس، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢م.
٧٦- الإسلام والرأسمالية، ترجمة نزيه الحكيم، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤م.
الرمادي، جمال الدين.
٧٧- من الشرق والغرب، علماء أجانب في خدمة الثقافة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، بلا.
- روم، جان بول.
٧٨- الإسلام في الغرب، تعريب نجدة طاهر وسعيد العزة، ط١، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٠م.
- الزيادي، محمد فتح الله.

٧٩- ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٨٣م.
- زهر الدين، د. صالح.
٨٠- الإسلام والإستشراق، مطبعة الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٩١م.
- زقزوق، د. محمود حمدي.
٨١- الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م.
- الساموك، د. سعدون، ود. عبدالقهار العاني.
٨٢- مناهج المستشرقين، التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م.
- السائح، د. أحمد عبدالرحيم.
٨٣- الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط١، الدار المصرية - اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- السامرائي، د.قاسم.
٨٤- الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية، ط١، الفرزدق، الرياض، ١٩٨٣م.
- السباعي، د. مصطفى.
٨٥- الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ط١، مكتبة دار البيان، ١٩٦٨م.
- السقا، احمد حجازي.
٨٦- نبوءة محمد في الكتاب المقدس، ط١، دار الفكر العالمي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- سعيد، أدوارد.
٨٧- الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١م.

- ستودارد، لوثروب.
٨٨- حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، ط٣، دار الفكر، ١٩٧١م.
سوبول، البير.
٨٩- تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كوسي، ط٢، بيروت، بلا.
- الشكعة، مصطفى.
٩٠- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ط٢، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٩٨٥م.
- شكري، محمد فؤاد.
٩١- الحملة الفرنسية، وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، مصر، بلا.
- الشرقاوي، د. محمد عبدالله.
٩٢- الإستشراق، دراسة تحليلية تقويمية، مطبعة المدينة، القاهرة، ١٩٩٣م.
- شلبي، أحمد.
٩٣- مقارنة الأديان، الإسلام، ط٥، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٧م.
- بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن.
٩٤- نساء النبي، دار المعارف، طبعة خاصة، القاهرة، ١٩٧٣م.
- الصغير، د. محمد حسين علي.
٩٥- المستشرقون والدراسات الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- صالح، د. سلوى الحاج.
٩٦- المسيحية العربية وتطوراتها، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨م.
- صبرة، د.عفاف سيد.
٩٧- المستشرقون ومشكلات الحضارة، ط٢، الفكرالعربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- العقيقي، نجيب.

٩٨- المستشرقون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.
- عليان، د. محمد عبدالفتاح.
٩٩- أضواء على الإستشراق، ط١، مطبعة الجيلاوي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- عريبي، د. محمد ياسين.
١٠٠- الإستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩١م.
- عاشور، سعيد عبدالفتاح.
١٠١- الذكرى والتاريخ، إصدار جامعة الكويت، بلا.
ـ العريبي، السيد الباز.
١٠٢- الحضارة والنظم الأوروبية في العصورالوسطى، دارالنهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨م.
- العظمة، عزيز.
١٠٣- العرب والبرابرة - المسلمون والحضارات الأخرى، دار الريس، بيروت، ١٩٩٨م.
- العظم، صادق جلال.
١٠٤- ذهنية التحريم، ط١، دار الريس، لبنان، ١٩٩٢م.
- عطية الله، أحمد.
١٠٥- دائرة المعارف الحديثة الثورة الفرنسية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، بلا.
- غلاب، د. محمد.
١٠٦- نظرات استشراقية في الإسلام، دار الكتاب العربي، مصر، بلا.
- فوزي، د. فاروق عمر.
١٠٧- الإستشراق والتاريخ الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٨٨.

- فانتاجو، ماكس.
١٠٨- المعجزة العربية، ترجمة رمضان لاوند، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤م.
- فوك، يوهان.
١٠٩- تاريخ حركة الإستشراق، تعريب عمر لطفي العالم، ط١، دار قتيبة، بيروت،١٩٩٦ م.
- فايشر، ب.
١١٠- الشرق مرآة الغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م.
- فايس، ليوبولد.
١١١- الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ط٩، دارالعلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.
- فريمو، جاك.
١١٢- فرنسا والإسلام، من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، ط١، الأرض للنشر، قبرص، ١٩٩١م.
- فرج، د. السيد أحمد.
١١٣- الإستشراق، الذرائع، النشأة، المحتوى، ط١، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٣م.
- فرج، عزالدين.
١١٤- نبي الإسلام في مرآة الفكرالغربي، العالمية، القاهرة، بلا.
- أبوالفتوح، سيد حافظ.
١١٥- قالوا عن الإسلام، رسائل إلى سلمان رشدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي، مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩م.
- قطب، محمد.
١١٦- المستشرقون والإسلام، ط١، مدني، القاهرة، ١٩٩٩م.
- قاسم، د. قاسم عبدة.
١١٧- ماهية الحروب الصليبية، مطابع السياسية، الكويت، ١٩٩٠م.
- قاسمي، محمد وشانتال داغرون.
١١٨- أحكام الغرب حول المسلمين والعرب، ترجمة فقيهي الصحراوي، أفريقيا الشرق، ١٩٩٨م.
- قبيسي، حسن.
١١٩- رودنسون ونبي الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م.
- قباني، رنا.
١٢٠- أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٢م.

- كحالة، عمر رضا.
١٢١- أعلام النساء في عالمي الغرب والإسلام، ط٣، الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م.
- كارليل وهيبرت.
١٢٢- الثورة الفرنسية، دار المستقبل، الاسكندرية، بلا .
- كاهن، كلود.
١٢٣- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٢م.
- لويون، غوستاف.
١٢٤- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٩م.
- لويس، برنارد.
١٢٥- تاريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية، ط٢، المستمع العربي، بلا.
- لابوم، جول.
١٢٦- تفصيل آيات القرآن الكريم، ترجمة محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، دار احياء الكتب العربية، مصر، بلا.
- محمود، د. عبدالحليم.
١٢٧- أوروبا والإسلام [العصرية، لبنان، بلا].
- المسلاتي، د. مصطفى نصر.
١٢٨- الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ط١، دار اقرأ بنغازي، ١٩٩٠م.
ـ معلوف، لويس.
١٢٩- المنجد في اللغة، ط٥، بلا.
ـ ماسييه، هنري.
١٣٠- الإسلام، ترجمة بهيج عثمان، ط١، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٠م.
ـ مغنية، د. جواد علي.
١٣١- تاريخ العرب في الإسلام، مكتبة دار الحداثة، بيروت، بلا.
ـ الملاح، د. هاشم.
١٣٢- موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م.
ـ المطعني، د. عبدالعظيم.
١٣٣- الإسلام في مواجهة الإستشراق العلمي، ط١، الوفاء، المنصورة، ١٩٨٧م.
ـ النملة، د. علي ابراهيم بن الحمد.

١٣٤- الإستشـراق والدراسـات الإسـلامية، مصـادر الإستشـراق والمستشـرقين ومصدريتهم، ط١، التوبة، الرياض، ١٩٩٨م.
ـ النمر،عبد المنعم.
١٣٥- الثقافة الإسلامية بين الغزو والإستغزاء [دار المعارف، مصر، ١٩٧٧].
ـ ناجي، د.عبدالجبار.
١٣٦- تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١م.
ـ بن نبي، مالك.
١٣٧- الظاهرة القرآنية، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.
ـ هيكل، محمد حسين.
١٣٨- حياة محمد، ط٥، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.
ـ هونكة، زيغريد.
١٣٩- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط٣، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧٩م.
ـ الهراوي، حسين.
١٤٠- المستشرقون والإسلام، ط١، المنار، القاهرة، ١٩٣٦م.
ـ وجدي، محمد فريد.
١٤١- دائـرة معـارف القـرن العشـرين، ط٣، مطبعـة دائـرة المعـارف، بيـروت، ١٩٧١م.
ياسين، السيد.
١٤٢- الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣م.
ـ يوسف، جوزيف نسيم.
١٤٣- في تاريخ الحركة الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
١٤٤- الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥م.
١٤٥- مناهج المستشرقين، كتاب منهجي، جامعة بغداد، كلية الشريعة، المرحلة الرابعة.

ثالثاً: الدوريات والمجلات

الأعسم، د. عبدالأمير.
١٤٦- الإستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر، آفاق عربية، العدد الأول، كانون الثاني، ١٩٨٧م.
ـ أركون، محمد.

١٤٧- التأمل الابستمولوجي غائب عند العرب، مجلة الفكر العربي، العدد ٢٠، ٢١، ٢٢.
ـ الأوسي، د. حكمت علي.
١٤٨- من أعلام الإستشراق الإسباني، مجلة الإستشراق، العدد ١٩٨٩،٣م.
ـ الأمين، عبد محمد.
١٤٩- الإستشراق والعلاقات الإسلامية اليهودية في السيرة النبوية، مجلة مركز بحوث السيرة، جامعة قطر، العدد ٩، ١٩٩٧م.
ـ الجشعمي، د. عصمت جودي محمد.
١٥٠- دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٥٢، ١٩٩٥م.
ـ جواد، قيس خزعل.
١٥١- تطور الصورة الغربية للشرق، مجلة دراسات شرقية، دار الألفباء للنشر والتوزيع، باريس، السنة الأولى، العدد الأول، كانون الثاني، ١٩٨٢م.
ـ الدسوقي، د. محمد.
١٥٢- خصائص المرحلة الثالثة للإستشراق، مجلة الدعوة الإسلامية، الرقم ٧٢، السنة ٢٠٠٠.
ـ درويش، د. أحمد.
١٥٣- الإستشراق الفرنسي والأدب العربي، مجلة دراسات أدبية، مطابع الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م.
ـ ذنون، د. عبدالواحد.
١٥٤- أثر الأندلس في الفكر الغربي، بيت الحكمة، بغداد، تموز، ١٩٩٧م.
ـ رودسنون، مكسيم.
١٥٥- الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام، تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزون، تحقيق شاكر مصطفى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.
الرحيم، د.أحمد حسن.
١٥٦- المستشرق أرنست رينان ونظرته إلى اللغة والفلسفة، مجلة الإستشراق، العدد الثاني، شباط، ١٩٨٧م.
ـ أبو زيد، أحمد.
١٥٧- الإستشراق والمستشرقون، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الثاني، تموز، آب، أيلول.
ـ سعيد، خير الله رشك.
١٥٨- منهجية التعالي على تراث الشعوب، دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، العدد التاسع، تموز، ١٩٩٠م.

الصغير، د. محمد حسين علي.
١٥٩- ظاهرة الوحي والمستشرقون، بحث ألقي في ندوة المستشرقين وموقفهم من التراث العربي الإسلامي، الجامعة المستنصرية، كلية الفقه، ١٩٨٦م.
ـ علي، سعيد حسين.
١٦٠- دوافع وآثار حركة الإستشراق الهولندي في مضمار الجغرافية العربية، مجلة الفيصل، شركة الطباعة السعودية، الرياض، العدد ١١٩، كانون الثاني، ١٩٨٧م.
ـ عبدالمنعم، د. شاكر محمود.
١٦١- تهافت الاستدلال في دراسات المستشرقين، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣٠، ١٩٨٦م.
ـ غابرييلي، فرانشيسكو.
١٦٢- الإسلام في عالم البحر المتوسط، تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزون، تحقيق شاكر مصطفى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.
ـ غابرييل، غارسيا مركيز.
١٦٣- حديث في مناسبة تسليمه جائزة نوبل في ستوكهولم عام ١٩٨٢م.
ـ الفراج، د.عدنان علي.
١٦٤- الإستشراق والسيرة النبوية، مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، العدد ٣، السنة٣، ١٩٩٦م.
ـ فرح، د.الياس.
١٦٥- مقابلة مع المفكر العربي، بغداد، آذار، ٢٠٠٠م.
ـ الكعاك، عثمان.
١٦٦- التبشير والتخطيط التبشيري، مجلة الفكر الإسلامي، بيروت، العدد الثاني، السنة ٥، شباط، ١٩٧٤م.
ـ ميكيل، اندريه.
١٦٧- مات الإستشراق وحذار من الاستغراب، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد ٢٠، ٢١، ٢٢، ١٩٨٢م.
ـ منتران، روبير.
١٦٨- الإستشراق الفرنسي، أصوله، تطوره، آفاقه، ترجمة يوسف حبي، مجلة الإستشراق، العدد الثاني، شباط، ١٩٨٧م.
ـ ناجي، د. عبدالجبار.
١٦٩- الإستشراق وسيلة لنقل ترجمات بيت الحكمة العباسي إلى الغرب، مجلة بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٠م.

١٧٠- الإستشراق وسيلة للإتصال بين الحضارة العربية الإسلامية والفكر الغربي، بيت الحكمة، بغداد، تموز، ١٩٩٧م.
ـ النجار، شكري.
١٧١- لما الاهتمام بالشرق، مجلة الفكرالعربي، العدد٣، ١٩٨٢م.
رابعاً: الرسائل الجامعية
ـ أحمد، عمار لبيد إبراهيم.
١٧٢- السيرة النبوية في كتابات المستشرقين المعاصرين، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، معهد التاريخ العربي، بغداد، ١٩٩٥م.
ـ حسين محمد بهاء الدين.
١٧٣- المستشرقون والقرآن الكريم، رسالة دكتوراه، غير مطبوعة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، ١٩٩٣م.
ـ الراوي، اقبال حسن أحمد.
١٧٤- الحياة الأسرية لرسول الله (ﷺ) وصحابته رضي الله عنهم جميعاً في عصر الرسالة، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٦.
ـ الشاوي، عبدالباسط عبدالصمد أحمد.
١٧٥- الغزو الأوروبي للفكر العربي الإسلامي، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، كلية الشريعة، جامعة بغداد، ١٩٨٧م.
ـ اللهيبي، محمود تركي فارس.
١٧٦- الأحوال الاجتماعية لصحابة النبي في المدينة في عصر النبوة، رسالة دكتوراه، غير مطبوعة، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٩م.

خامساً: المصادر الأجنبية

177- Webster's, New Twentieth Century, Dictionnary.

178- University Press, The Compact Edition of The Oxford English Dictionnary, (New York, 1971).

179- The American People's Encyclopedia, (New York).

180- Le Nouveau Petit Robert, Dictionnaire De La Langue Francaise, Nouvelle Edition, Remaniee et Amplifiee sous la Direction De Josett Rey-De Bove et Alain Rey, (Paris, Decorobert, 1993).

181- Format, Grand, Le Petit Larousse,(Paris, 1993).

182- The World Book Encycopedia, (USA – 1964).

183- L'encyclopedie Francaise, Edition La Roche Faucauld, Imprime en Union Europenne par (Edipro, Aout, 1998).
Boulainvillers, Henrie.

184- La vie de Mahommet, Francois Changuion, Second Edition (Amsterdam,1731).
De Mohmbynes, Maurice Gaudefroy.

185- Mohammed, Albin Michel, (Paris, 1957).
Delcambre, Anne - Marie.

186- Mahommet – La Parole d'Allah, Gallimard, (Paris, 1987).

187- Mahommet, Edition (Descless De Brouwer, 1999).
Gabrieli, Francisco.

188- Muhammed and The Conquest Of Islam,
(London 1968)
Lamence, Henrie.

189- L'islam, (Edition Catholique, Beyrouth, 1943).
Massignon, Louis.

190- La Rawda De Medine, Institution D'archeologie Oritentale, (Egypt, 1960).
Rodinson, Maxim.

191- Mohammed, Trensraed From French by Anne Carter, (PenGuin Books, 1983).
Sharafuddin, Mohammed.

192- Islam and Romantique Orientalism, (I.B Touris, London, 1996).
Watt, Montegomery.

193- Mohammed, Prophet and Statesman, (London, 1965).

194- Mohammed at Mecca, (Oxford,1965).